

الأدب العالمي للناشئين
عشرون ألف فرسخ
تحت الماء
جول فيرن

عشرون ألف فرسخ تحت الماء

تأليف
جول فيرن

ترجمة
مروة عبد الفتاح شحاتة



عشرون ألف فرسخ تحت الماء

20000 Leagues under the Sea

جول فيرن

Jules Verne

الطبعة الثانية ٢٠١٣م
رقم إيداع ٢٠١١ / ٧٣٧١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

فيرن، جول
عشرون ألف فرسخ تحت الماء/جول فيرن، ١٨٢٨–١٩٠٥؛ ترجمة مروة عبد الفتاح شحاتة.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٨٦ ٤

١- القصص الإنجليزية

أ- عبد الفتاح شحاتة، مروة (مترجم)
ب- العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول

وحش أم رجل؟

سيتذكر العالم دومًا عام ١٨٦٦ لما شهده من حدث غريب. على مدار شهور، ظل البحارة حول العالم يتحدثون عن كائن غريب، حيث رأى كل منهم حيوانًا أسرع وأضخم من أي حيوان بحري آخر، يبدو هذا الكائن أحيانًا مضيئًا! رأى ذلك الكائن الكثير من الناس، مما يؤكد أنه حقيقي؛ فاللغز موجود بالفعل.

في شهر أبريل/نيسان عام ١٨٦٧ هاجم الوحش سفينة ضخمة، شعر الجميع بالذعر بعد هذه الحادثة، وفي النهاية أراد الناس البحث عن ذلك الوحش الذي يحكم البحار.

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع بها عن ذلك الأمر، فقد قضيت الستة أشهر الماضية في إجراء أبحاث في الولايات المتحدة، كنت أدرس المحيط والحياة البحرية. حاز عملي احترامًا كبيرًا من قبل علماء آخرين. أراد الناس معرفة رأيي في الوحش، كنت أفكر في خيارين، ذلك الشيء قد يكون وحشًا لم نسمع به من قبل قط، أو قد يكون سفينة من نوع ما.

لم أعتقد أن بمقدور أي شخص بناء مثل تلك السفينة دون أن يعرف آخرون عن ذلك الأمر. وبعد جمع كل المعلومات المتوفرة عن ذلك الكائن، قررت أن لا بد أنه مخلوق بحري جديد بالنسبة لنا. فكيف لنا أن نعرف ما الذي يعيش في أعماق المحيطات؟ نحن نخمن فقط. ربما كان ظهور هذا المخلوق ليس سوى صدفة.

وبعد الكثير من التفكير في الأمر، توصلت إلى إجابة هي: لا بد أن هذا الحيوان هو كركدن البحر أو حيوان وحيد القرن البحري. لكن حجمه أضخم كثيرًا من كركدن البحر العادي، بل قد يكون حجمه عشرة أضعاف حجم كركدن البحر، ولا بد أن قرنه أقوى ستة

أضعاف، ومع سرعته التي تقدر بعشرين ميلًا في الساعة، سيصبح هذا الحيوان وحشًا يحكم البحار وما فيها.

سرعان ما انتشر خبر ذلك الحيوان حول العالم، وتم الاتفاق على إرسال سفينة للبحث عنه. غادرت سفينة أبراهام لينكولن في أسرع وقت ممكن، لكن عندما نكون في أتم الاستعداد لمواجهة الوحش، يختفي الوحش. مر شهران دون أن يراه أي فرد، وعادت السفينة بلا جديد. وأخيرًا جاءت أخبار من سفينة بخارية تغادر سان فرانسيسكو، فقد شوهد الوحش! وتقرر أن تبحر سفينة أبراهام لينكولن مرة أخرى. وقبل استعداد السفينة بثلاث ساعات تلقيت خطابًا:

إلى السيد آروناكس، البروفيسور بمتحف باريس

سيدي: إذا أردت الانضمام إلى هذه الرحلة على متن سفينة أبراهام لينكولن، فستسعد حكومة الولايات المتحدة بذلك. وقد خصص القائد فاراجوت حجرة لك.

تحياتي،
جيه بي هوبسون
سكرتير سلاح مشاة البحرية

وضعت الخطاب جانبًا، أدركت الآن أنه علي مطاردة الوحش حتى الإمساك به. نسيت مدى الإرهاق الذي أشعر به، ولم أفكر في أصدقائي أو عملي، كل ما أردته أن أغادر وأبدأ عملية البحث.

اصطحبت خادمي، كونسيل، في كل سفرياتي، فقد أحببته وأحبني، لم يسألني قط إلى أين نحن ذاهبون، أو كم سنمكث. هذا إلى جانب أنه كان شابًّا قويًّا، واعتمدت عليه في مساعدتي في حمل أمتعتي.

حزمت أمتعتي بمساعدة كونسيل.

ولدى وصولنا إلى سفينة أبراهام لينكولن، قابلت الرجل المسئول عن الرحلة.

قلت: «أنا بيير آروناكس» وبسطت يدي لمصافحته: «هل أنت القائد فاراجوت؟»

انحنى الرجل تحيةً وابتسم: «حجرتك جاهزة لاستقبالك.»

تبعته وأنا أتفحص السفينة أثناء مرورنا. كانت سفينة مناسبة للبحث عن ذلك المخلوق، كما كانت سريعة للغاية، لكن بالطبع لن تضاهي سرعة الوحش. كانت الحجرات

على متن السفينة، بما في ذلك الحجرة الخاصة بي، ملائمة للمكوث بها على مدار الأيام العديدة القادمة.

كان حشد من الناس برصيف الميناء في وداعنا، هللوا وتمنوا لنا الحظ الطيب في العثور على الوحش. وسريعًا وصلت السفينة إلى سرعة عالية واندفعنا داخل مياه المحيط الأطلنطي المظلمة.

الفصل الثاني

البحث عن الحيوان المفترس

إن القبطان فاراجوت بحار ماهر، كان يبحر وكأنه هو والسفينة كيان واحد. من الواضح أن هذا الرجل إما سيقتل الوحش البحري أو سيقتله الوحش في النهاية، لم يكن باستطاعتي رؤية خيار آخر.

ساور سائر الرجال على متن السفينة الشعور نفسه، لا بد من وضع نهاية لكركدن البحر ذاك. عندما وضع القبطان فاراجوت جائزة مالية تبلغ ألفي دولار لأول رجل يرى الحيوان البحري، شعر البحارة بالحماسة أكثر، كان أكثرهم حماسة رجلًا يدعى نيد لاند. اشتهر نيد بأنه أمير صيد الحيتان بالرماح. كان بمقدوره إلقاء الرمح أفضل من أي شخص آخر؛ لم يؤمن نيد بوجود حوت بهذا الحجم، وكان الرجل الوحيد الذي آمن بذلك على متن السفينة. إذ وجد صعوبة في تصديق أن هناك سفينة من صنع الإنسان بهذا الحجم في البحر، وبالطبع بدا احتمال وجود كركدن البحر مستحيلًا. حاولت أن أغير رأيه، لكنه كان عنيدًا، فقد بدا وجود سفينة من صنع الإنسان هناك أكثر منطقية من وجود حوت من وجهة نظره.

بحث القبطان وطاقم السفينة في مياه المحيط ثلاثة أشهر، لكن مع مرور الوقت شعر الجميع بالسأم، بدا الأمر وكأن الوحش قد اختفى إلى الأبد. لم يتمكن البحارة من إخفاء شعورهم بالإحباط، وبدءوا يتحدثون عن العودة إلى ديارهم، مع ذلك عارض القبطان ذلك. إذا أراد القبطان الحفاظ على وحدة طاقم السفينة، فعليه أن يجري بعض التعديلات سريعًا.

قال القبطان: «امنحوني ثلاثة أيام.» إذا لم يظهر الوحش خلال الأيام الثلاثة القادمة، فستغير السفينة وجهتها وتعود أدراجها.

هذا الأمر زود طاقم السفينة ببصيصٍ من الأمل، إذا لم يعثروا على الوحش البحري، فسيعودون إلى حياتهم الطبيعية على الأقل. تجمع البحارة فوق سطح السفينة مرة أخرى. كانت مجموعة من الرجال تراقب ظهور أي إشارة للوحش على الدوام.

مر يومان، جرب فيهما الرجال كل شيء لجذب الوحش، فقد ألقوا الطعام من فوق المركب إلى المحيط، وخرجت قوارب صغيرة من السفينة لم تترك مكانًا بالمحيط إلا وبحثت فيه، بحث الرجال طوال النهار والليل، دون جدوى.

وفي اليوم الثالث لم يكن أمام القبطان خيار سوى العودة إلى الديار، لم يكن الحوت على مرأى منهم على الإطلاق. حتى إن القبطان فاراجوت أدرك أن الوقت قد حان للعودة إلى الوطن. لكن أثناء تغيير السفينة لوجهتها، تغير معها حظ البحارة. دوى صوت عالٍ وسط الصمت، كان صوت نيد لاند، الشخص الوحيد الذي لا يعتقد في وجود الوحش على متن السفينة، وكانت الكلمات التي صاح بها جعلت كل من في السفينة يأتي مهرولًا للمشاهدة.

أصدر القبطان فاراجوت أوامره بالتوقف، أبطأت السفينة حتى توقفت، وأخذت تهتز برقة مع حركة الأمواج. تفحصت الظلام، وتساءلت كيف تمكن ذلك الرجل من رؤية أي شيء. خفق قلبي وكأنه سيتوقف، لكن نيد لم يكن مخطئًا، رأينا جميعًا الشيء الذي أشار نحوه. وقد أضاء البحر بوهج غريب، أخذ الضوء فوق سطح الماء شكلًا بيضاويًّا، وشعرنا بدفء قادم من أسفل المياه.

حاول أحد الربابين تقليل أهمية ذلك الشيء بلغة علمية.

أجبت: «كلا، انظر! انظر! إنه يتحرك! إنه يتقدم للأمام والخلف. إنه يندفع نحونا!»

علت صيحة مدوية بين الحشد.

قال القبطان: «صمتًا! تحرك في الاتجاه المعاكس! يجب أن نعود!»

امتثل الطاقم للأوامر وتحركت السفينة بعيدًا عن ذلك المخلوق.

لكن الحيوان البحري انطلق في اتجاهنا بسرعة أكبر. حبسنا أنفاسنا أثناء انتظارنا لإدراك الوحش لنا. دعوت الله في صمت، لن تنجو سفينة أبراهام لينكولن من أي هجوم من حيوان بهذا الحجم.

وفجأة اختفى الضوء، فشعرنا بشيء من الارتياح. لكن بعد ذلك ظهر الوحش على الجهة الأخرى، وكأنه انزلق من أسفل السفينة. توقعنا اصطدام الحيوان البحري بنا في أي لحظة، بدلًا من ذلك انطلق المخلوق الضخم بعيدًا عنا دون الانقضاض علينا.

ظهر على وجه القبطان علامات الذهول وعدم التصديق.

قال لي: «سيد آروناكس، لقد شُل عقلي عن التفكير.»

أجبت بسؤال أعرف إجابته بالفعل: «أتصدق الآن أنه حيوان طبيعي؟»

أجاب القبطان: «أصدق بالفعل، يبدو كأنه كركدن بحر كهربي عملاق.»

أضفت: «أعتقد أن ليس هناك شيء سيردعه أقل من توربيد»

«أجل، بهذه القوة، لا بد أنه أبشع مخلوق خلق. يجب أن نكون على أهبة الاستعداد.»

أمضى البحارة الليلة وهم يراقبون البحر بحثًا عن أي إشارة لوجود الحيوان البحري. انطفأ الضوء المنبعث من الوحش منتصف الليل تقريبًا. وفي غضون ساعة، بدأ صفير مدوٍّ، بحلول الصباح، أثار الحيوان البحري غضب طاقم السفينة، فقد حاولوا صيده بالرماح وإطلاق النيران عليه، لكن يبدو أن جهودهم لم تؤذ الحيوان البحري على الإطلاق.

بدا أن الهجوم على الحيوان أثناء ساعات النهار عديم الفائدة؛ إذ نادرًا ما ظهر الحيوان فوق سطح الماء. وعندما نراه بالفعل كنا نبعد عنه مسافة كبيرة. عندما حل الليل أصبح الجو عاصفًا والمياه مضطربة، سمحت لنا الأنوار التي أضاءت حول الحيوان البحري تضييق الخناق عليه بسهولة أكثر. أراد القبطان الفتك بالحيوان، أطلق الطاقم عدة رصاصات نحو الحيوان. وقف نيد وهو يراقب الأمر ماسكًا رمحه، وقفت بجواره بجانب السفينة، وأنا أدعو الله أن نرى الوحش. وعندما وجد نيد الفرصة سانحة له للمرة الأولى، ألقى رمحه باتجاه الحيوان. أمسكت بسور السفينة، محاولًا مقاومة الأمواج التي يتسبب فيها الحيوان الضخم. اصطدم الرمح بشيء صلب وتسبب في حدوث حركة قوية في المياه، مما أدى إلى سقوط بعض الرجال وسقوطي من فوق المركب إلى البحر قبل أن أدرك حتى ماذا يحدث.

الفصل الثالث

غرق وإنقاذ

كان سقوطي من فوق السفينة قاسيًا لكنني لا أذكر حقًّا ما حدث. في البداية، غطست في المياه مسافة عشرين قدمًا تقريبًا، لكنني سباح ماهر، لذلك لم يخفني ذلك الأمر. صعدت مرة أخرى على سطح المياه، لكن عندما نظرت حولي في الظلام، رأيت شيئًا مظلمًا يختفي ناحية الشرق، كانت أنوار ذلك الشيء تنزوي ببطء. لقد كانت السفينة! أنا ضائع الآن!

صرخت وأنا أسبح تجاه السفينة: «النجدة! النجدة!»

التصقت ملابسي بجسدي ومنعتني من التحرك. كنت أغرق! كنت أختنق!

«النجدة!»

كانت تلك صيحتي الأخيرة. امتلأ فمي بالماء وكافحت كي أظل فوق سطح الماء، وفجأة امتدت يد قوية وجذبتني من ملابسي وشعرت بنفسي أنجذب نحو السطح. بعد ذلك سمعت بوضوح شديد هذه الكلمات تهمس في أذني: «سيدي، إذا أمكنك أن تتكئ على كتفي فستتمكن من السباحة بسهولة أكثر.»

أمسكت بيد كونسيل.

سألته وأنا لا أدري أين أنا: «هل هذا أنت؟»

أجاب كونسيل: «أجل، أنا في انتظار أوامرك.»

«أعتقد أن كلينا سقط في المياه.»

أجاب كونسيل: «كلا، لكن بما أنك سيدي، قفزت وراءك.»

كان من الصعب عليَّ تصديق أنه قفز بالفعل خلفي في المياه. لكنه كان صديقًا وفيًّا.

سألته: «وماذا عن السفينة؟»

أجاب كونسيل: «السفينة؟ لا أعتقد أنه يجب عليك أن تعتمد عليها في نجدتنا. فعندما قفزت إلى الماء، سمعت الرجال عند عجلة القيادة يقولون إن مروحة الدفع والدفة تحطمتا.»

«تحطمتا؟»

«أجل، حطمهما الوحش بأسنانه، وهذا هو الضرر الوحيد الذي لحق بسفينة أبراهام لينكولن، لكن السفينة ابتعدت الآن، لا يمكننا لفت انتباهها.»

قلت لنفسي: «إذن نحن تائهون.»

قال كونسيل: «ربما، لكن لا يزال أمامنا عدة ساعات، يمكننا فعل الكثير في ذلك الوقت.»

أعطاني موقف كونسيل الذي لا يخلو من القلق بصيصًا من الأمل. إلا أن ثقل ملابسي جعلتني أفكر أنني لن أستطيع السباحة مسافة كبيرة.

سألني كونسيل: «هل تحب أن أمزق ثيابك؟» وبعد أن استأذنني، استخدم سكينًا لتمزيق ملابسي من أعلى إلى أسفل. وعندما بدأت السباحة، انخلعت الثياب بسهولة، وفعلت الأمر نفسه معه، وواصلنا السباحة معًا.

لكن كان موقفنا مفزعًا، ربما لم يلحظ أحد أننا مفقودون. مع ذلك كانت أفضل آمالنا أن نواصل السباحة في اتجاه السفينة. حل منتصف الليل، ربما مع بزوغ ضوء النهار سنكون على مقربة كافية منهم ليرونا.

أصابني الإعياء فجأة، لم يعد باستطاعتي السباحة. رأينا السفينة، لكنها كانت لا تزال تبعد عنا مسافة خمسة أميال. صرخنا في الهواء، رغم استحالة سماعنا.

أصغينا السمع، ربما يكون صوت صفير في أذني، لكن بدا لي أن هناك صيحة تجيبنا.

تمتمت: «هل سمعت هذا؟»

«أجل! أجل!»

صاح كونسيل في ذعر مرة أخرى.

لكن هذه المرة لم أكن مخطئًا! أجاب صوت بشريّ صيحاتنا! هل كان هذا صوت شخص آخر ترك في منتصف المحيط؟ أم أن هناك قاربًا تابعًا للسفينة يحاول العثور علينا في الظلام؟

صاح كونسيل مرة أخيرة، ثم تراجع في المياه مرة أخرى وهو يشعر بالإرهاق.

«ماذا رأيت؟»

قال في نبرة انهزامية: «رأيت ....»

ماذا رأى؟ الوحش؟ ماذا عن الصوت؟ لقد سمعته بصعوبة. لقد أنهكت قواي، وتيبست أصابعي، وارتخى فمي وانفتح، ودخل الماء المالح إليه، تملكت البرودة من جسدي. رفعت رأسي للمرة الأخيرة، ثم غرقت في المياه.

اصطدم بي شيء صلب في تلك اللحظة بالضبط، تشبثت به وشعرت وكأنني أنجذب إلى أعلى، شعرت بنفسي على سطح المياه، وفي تلك اللحظة غبت عن الوعي.

استعدت الوعي على تدليك كونسيل السريع لجسدي، فتحت عيني جزئيًّا.

تمتمت: «كونسيل! ماذا تريد؟»

حينها، انحسر ضوء القمر في الأفق. وفي وهج القمر، رأيت وجهًا غير وجه كونسيل، تعرفت على هذا الوجه في الحال.

صحت: «نيد! هل سقطتَ في المياه بفعل اهتزاز السفينة القوي.»

«أجل يا بروفيسور، لكنني كنت محظوظًا، فقد عثرت على جزيرة.»

قلت: «جزيرة؟»

«حسنًا، تحريًا للدقة أعتقد أنني هبطت فوق كركدن البحر العملاق.»

سألت في حيرة شديدة: «ماذا تقصد؟»

«لقد ألقيت الرمح بالفعل، لكنه لم يثقب القشرة الخارجية، في واقع الأمر انثنى الرمح.»

سألته: «لماذا يا نيد، لماذا؟»

«لأنه يا بروفيسور، الحيوان البحري مصنوع من الحديد.»

أدخلت كلمات نيد العديد من الأفكار في ذهني، تسلقت إلى قمة الشيء الذي نجلس فوقه وركلته بقدمي، كان جسم ذلك الشيء صلبًا، لا يشبه الجسم الخارجي لمعظم الحيوانات البحرية. لكن هل يمكن أن يكون من الزواحف، كالسلحفاة أو التمساح الأمريكي؟

كلا، كان ذلك الشيء من صنع الإنسان، كان أملس ومصنوعًا من الفولاذ. من الواضح أننا نرقد فوق ظهر شيء كمركب على شكل سمكة ضخمة من الفولاذ.

في ذلك الوقت علا صوت خرير في مؤخرة الشيء الغريب، وبدأ يتحرك، لم يكن لدينا متسع من الوقت لإحكام قبضتنا بالجزء العلوي الذي نتأ مسافة سبعة أقدام خارج المياه.

قال نيد: «ما دامت تمشي في خط مستقيم فسنكون بخير، لكن إذا قررت أن تغوص في المياه، فسينتهي أمرنا.»

ركل نيد الفولاذ الذي كنا نقف عليه، وقال «افتح الباب أيها الوحش.» مرت دقيقة حتى استوعبت أن صديقي يريد الدخول، كان المركب الذي نجلس فوقه يغوص ببطء.

لحسن حظنا توقف المركب عن النزول داخل المياه، وفجأة سمعنا صوتًا كقرع المعدن قادمًا من داخل المركب. تحركت دائرة معدنية وظهر رجل، أطلق الرجل صرخة غريبة واختفى. وبعد مرور بضع دقائق، ظهر ثمانية رجال أقوياء، ولوحوا بأيديهم إشارة لنا للقدوم إلى داخل المركب، امتثلنا للأمر ونحن لا ندري ماذا علينا أن نتوقع.

الفصل الرابع

غريبان

أصبحنا داخل الآلة المعدنية في غضون ثوان. ارتجف جسدي بأكمله، لم يكن لدي أدنى فكرة ماذا سيحدث. في البداية كنا في ظلام دامس، لم أستطع رؤية أي شيء، شعرت بقدمي تلتصق بدرجات سلم، وكان خلفي نيد وكونسيل. وعند نهاية السلم، انفتح باب وانغلق محدثًا صوتًا عاليًا.

كنا وحدنا، والظلام دامس، لم يكن باستطاعتي تخيل أين نحن، مضى ما يزيد عن نصف ساعة قبل أن يظهر بصيص من الضوء، فقد ظهر الضوء مع قدوم رجلين.

أحدهما كان قصيرًا ومفتول العضلات، شعره أسود اللون وله شارب أسود اللون. أما الآخر فكان طويلًا ووسيمًا.

تحادث الرجلان الغريبان بلغة لم أسمع بها قط، تحدثت بالفرنسية وأخبرتهما أنني لا أفهمهما.

وعندما لم أحصل على إجابة، قررت أن أخبرهما بقصتي لعلهما يفهما بعض الكلمات. أخبرتهما بأسمائنا وتحدثت ببطء عن كل واحد منا.

استمع الرجلان إليّ، كنت واثقًا أنهما لا يفهمانني، أومأت لنيد إشارة له لأن يحاول الحديث معهما بالإنجليزية، لكنهما لم يجيباه بشيء. تحدث كونسيل إليهما بعد ذلك بالألمانية، لكن لم نجد سوى تلك النظرات المحدقة التي تخلو من التعبير، غادرا بعد مرور بضع دقائق، مما جعلنا نشعر بالحيرة والذعر.

تحدثنا عن موقفنا بضع دقائق، وبعد ذلك انفتح الباب، دخل رجل ومعه ثياب ومعاطف وسراويل مصنوعة من مادة لم أراها قط. وسريعًا خلعنا ملابسنا المبتلة، وبينما كنا نرتدي الثياب، إذ وضع الرجل طاولة في الحجرة ووضع ثلاثة صحون.

سأل نيد: «في رأيك ماذا يتناولون للطعام هنا، كبد سلحفاة وسمك قرش؟»

لدواعي دهشتنا، تعاملوا معنا وكأننا في مطعم فاخر، تناولنا عدة أنواع من الأسماك، بعض منها لم أتذوقه من قبل. كانت توجد أصناف أخرى استمتعت بتناولها، مع عجزي عن تمييز ما إذا كانت خضراوات أم لحومًا. انتهينا من التهام الطعام الموجود بكل صحن بالكامل، ورأينا كتابة على كل صحن:

«التغيير في المتغيرات»

«ن»

على الأرجح كان الحرف «نون» الحرف الأول من قبطان المركب. لم نجهد أنفسنا في التفكير في ذلك الأمر، كنا نشعر بالتعب والشبع بعد تناول الوجبة، تمدد نيد وكونسيل فوق البساط واستغرقا في النوم سريعًا، مع ذلك لم أتمكن من الاسترخاء، دارت أفكاري حول كل ما حدث لنا في الساعات العديدة الماضية، وأخيرًا سمحت لنفسي بالاسترخاء، واستغرقت في نوم عميق داخل ذلك الوحش الغريب الذي وجدناه.

الفصل الخامس

الغواصة نوتيلوس

استغرقنا في النوم مدة طويلة، سعدت بذلك القدر من الراحلة لأنه سيسمح لي بالتفكير بوضوح أكثر. شيئًا فشيئًا بدأنا نتساءل عن المكان وعن أسباب احتجازنا في زنزانة. لم يمر وقت طويل قبل أن نلحظ ارتفاع حرارة الجو بالمكان، فقد كنا نعاني صعوبة في التنفس! وما إن بدأ القلق يساورني حيال وجودي في هذه السفينة، حتى اندفع هواء نقي عبر منفذ ما، في الوقت نفسه بدأت السفينة تتحرك.

تحدثنا عن موقفنا، وأدركنا أنه مر علينا يوم كامل منذ تناولنا وجبتنا الأخيرة حتمًا؛ إذ شعرنا بجوع شديد، كان نيد من بدا عليه الانزعاج أكثر، فنقص الهواء النقي والشعور بالجوع جعلاه يتصرف بسوء وغضب. عندما ظهر بعض الرجال أخيرًا عند الباب، قفز نيد تجاه الرجل الأول وأحكم قبضته عليه، منعه كونسيل قبل أن يؤذي الرجل بالفعل.

«تحكم في أعصابك يا سيد نيد! وأنت يا بروفيسور عليك أن تستمع إليّ جيدًا.» تقهقرنا في دهشة بعد سماع الكلمات بالفرنسية، كان قبطان السفينة يتحدث إلينا، تراجع نيد، وأرخى قبضته عن الرجل، مر بضع دقائق قبل أن يتحدث الرجل المسئول مرة أخرى.

قال: «يا سادة، أنا أتحدث لغتكم، أعرف من أنتم وماذا كنتم تفعلون على متن سفينة أبراهام لينكولن.»

قلت: «لكن من أنت يا سيدي؟ ولماذا تحتجزنا هنا؟» كانت كلماتي هادئة لكنني استشعرت بالغضب داخلي.

«أنا رجل سئم العالم بما كان عليه، وأنشأت عالمًا خاصًّا بي، عالمًا لن أتركه أبدًا.»

«هذا يناسبك أنت يا سيدي، لكن ماذا عنا؟ لسنا جزءًا من خطتك.» حاولت ألا أبدو غاضبًا لأنني لم أكن أدري خططه.

أجاب الرجل الغريب: «أعرف أنكم كنتم تحاولون مطاردتي واصطيادي على مدى شهور، ولهذا السبب لا أحبكم، لكن بما أنكم هنا رغمًا عنكم، فسأهيأ الأمور كي تشعرون بالراحة، ستتنعم أنت وأصدقاؤك بالحرية على سفينتي، ما لم أر بالطبع حاجة لإخفائكم. وإذا حدث ذلك، فمن الممكن أن أحتجزكم داخل الحجرات.»

لم يغير غضبنا الواضح من رأي الرجل.

قال الرجل: «لن تندمون من قضاء الوقت هنا، ولأنني رجل يدرس البحار، فستجدونها مذهلة.»

لا أختلف في أن هذا المكان قد يكون رائعًا للاستكشاف، قررت ألا أجادل معه وسألته عن اسمه بدلًا من ذلك.

«يمكنك أن تناديني بقبطان نيمو، وبالنسبة لي أنتم لستم سوى ركاب على متن النوتيلوس.»

دخل رجلان وأومآ لكونسيل ونيد ليتبعاهما، أخذني القبطان نيمو إلى طريق آخر. سرنا مسافة قصيرة وانتهى بنا الحال داخل حجرة طعام رائعة. جلست إلى طاولة لتناول الفطور، رأيت أصنافًا مختلفة من الطعام، تذوقت معظمها قبل أن يتحدث القبطان ثانية.

«البحار هي كل شيء، فهي تغطي معظم العالم، تجعلني أشعر بالحرية والأمان من كل أشكال الأذى.»

أدركت أنه يعني كل كلمة، سار جيئة وذهابًا وهو يتحدث عن كل شيء بدءًا من الأسماك حتى أعماق البحار. عندما شعرت أنه أنهى كلامه، نهضت. أشار القبطان إلي لأتبعه مرة أخرى.

وصلنا إلى حجرة المكتبة، كانت هذه الحجرة أجمل من حجرة الطعام، فكانت مزودة بكافة وسائل الراحة التي يحتاجها الفرد.

«هل هناك مكان أفضل للقراءة من أعماق البحار؟ أملك اثني عشر ألف كتاب هنا، هنا حيث السكون والخصوصية.»

وافقته على الفور وتوجهت مباشرة نحو الرفوف، فرأيت كتبًا في العلوم والأدب، كانت مكتوبة بعدة لغات مختلفة، وبدا أن جميع الكتب قد قرأت من قبل، فكرت في أن القبطان يحب هذه الحجرة حتمًا، ويأتي إلى هنا كثيرًا ليهرب إلى عالم القصص.

قلت: «شكرًا لك للسماح لي بهذه المتعة.» وأنا غير قادر على الابتعاد عن رفوف الكتب ولا أدري من أين أبدأ.

ضحك القبطان في دهشة من الأشياء الجديدة التي أتعلمها. بقدر معرفتي عن عالم البحار إلا أن القبطان كان يبهرني. ومع كل هذا، لم أكن شاهدت العجائب بعد. رافقت الرجل المهذب في جولة على متن النوتيلوس. كانت جميع الحجرات، بما في ذلك الحمام والمطبخ، تحمل طابعًا رفيعًا في الديكور. وكانت الآليات التي تحافظ على سير السفينة بسلاسة أغرب من أي شيء تصورته من قبل. تركت الكهرباء المستخدمة في تشغيل السفينة بأكملها شعورًا بالرغبة في معرفة مزيد من المعلومات حول السفينة الرائعة التي نبحر بها.

تحدث القبطان نيمو خلال الدقائق العديدة التالية عن تفاصيل تخص السفينة. فهمت كيف يتمكن الوحش الضخم من الصعود على سطح المياه والغوص مسافات بعيدة تحت سطح المياه لأنني عالِم؛ فأي مستمع آخر كان سيجد صعوبة في الفهم، لكنني فهمت كلامه واستمتعت به. ما زلت أشعر بالذهول من أن سفينة من هذا النوع يمكن تصميمها دون علم أي دولة؛ لكن ذلك كان صحيحًا، وأنا أثق بشدة في أنه ليس باستطاعة رجل آخر في العالم فعل ذلك. يتمتع القبطان نيمو بالذكاء والثروة والسلطة. يمكنه في الحقيقة تغيير المستقبل لأشخاص حول العالم، وجدت أن هذه الفكرة مخيفة ومريحة على حد السواء، أدركت أنني سأمضي وقتًا طويلًا مع هذا الرجل المثير للاهتمام.

سألني القبطان: «هل لك أن تنضم إلي على سطح السفينة؟» واتجه نحو السلم، صعدت السلم الحديدي ووجدت نفسي فوق سطح النوتيلوس، كان منظر البحر رائعًا من هنا، والسماء صافية ونسيم خفيف جعل الأمواج تتحرك، لم أشعر بإثارة أكثر من ذلك طيلة حياتي!

الفصل السادس

انطلاق المغامرة

ظل البحر هادئًا والسماء صافية، لم أستطع رؤية أرض من أي جهة، ولم أعلم في بداية الأمر أين نرسو. ظهر رجل من طاقم السفينة على السطح وقاس ارتفاع الشمس، وفي غضون ثوانٍ عرفنا الوقت والموقع.

قال القبطان نيمو: «أتركك الآن مع دراساتك، هناك خرائط بالأسفل لتتبعها وحجرة مخصصة للتأمل، سأكون في حجرتي.»

أدهشني قصر الوقت الذي أمضاه معي القبطان. ومع ذلك، تطلعت إلى الساعات التي سأقضيها وحدي. مكثت بسطح السفينة، ثم ذهبت إلى الصالون بالأسفل. كان هناك العديد من الخرائط في انتظاري، ومدة ساعة كاملة لم أفعل فيها شيئًا سوى التفكير. لم أصدق أن هذه المغامرة حقيقية، لكن دخول صديقيّ جعلها تبدو حقيقية تمامًا.

سأل نيد: «أين نحن؟»

أجبت: «يا صديقيّ، أنتما على متن السفينة نوتيلوس. يجب أن نعتبر أنفسنا محظوظين. فهذه سفينة مذهلة.»

قال نيد بصوت عالٍ: «محظوظين؟ نحن عالقون هنا في سفينة ليست مصنوعة إلا من عوارض حديدية! كيف يمكن أن نقول على ذلك حظ جيد؟»

أمضيت الدقائق التالية في محاولة إثارة إعجاب الرجل بالأشياء التي شاهدتها. عرفت أن نيد لن يشعر على الأرجح بما شعرت به. فقد رأيت الجمال والعجب على أصلهما، ومع ذلك، شعرت أنه يعي ما أحكيه، بقدر قليل على الأقل.

فجأة، عم الظلام حولنا، لكنني لم أقلق هذه المرة كما قلقت من قبل، بل انتظرت، توقعت رؤية شيء عجيب عندما عاد الضوء مرة أخرى. لم يخب ظني، على مدار

الساعتين التاليتين، استمتعنا بمهرجان من الألوان والحركة الرشيقة، سبحت أسماك ومخلوقات أخرى لم أرها من قبل بجوار السفينة، كان هناك ثعابين يبلغ طولها ستة أقدام، والسمندر الياباني منتشر في كل مكان، سيطرة علينا حالة من الذهول لما نراه من الطبيعة الخلابة من حولنا.

كنت سعيدًا للغاية برؤية ودراسة هذه الحيوانات في موطنها الأصلي، اجتذب وهج السفينة الأسماك. توقعت رؤية القبطان نيمو مرة أخرى، لكنه لم يظهر. وبعد مرور بعض الوقت، عاد نيد وكونسيل إلى الحجرة الخاصة بهما، وذهبت إلى حجرتي لتناول الغذاء، كانت وجبتي مكونة من حساء السلاحف ونوع من الأسماك لم أستطع تمييزه. قضيت معظم المساء في المطالعة والكتابة والتفكير. وأثناء انطلاق سفينة النوتيلوس في النهر الأسود، تمددت فوق الأريكة واستغرقت في النوم.

كان اليوم التالي هو التاسع من نوفمبر/تشرين الثاني، استيقظت بعد نوم طويل بلغ اثني عشرة ساعة. ارتديت ملابسي وذهبت إلى المكتبة. درست كل ما وقع بيدي ذلك اليوم، مر الوقت سريعًا، مر الوقت بأكمله دون زيارة من القبطان نيمو. وكان اليوم التالي كسابقه، لم أر أحدًا من طاقم السفينة. أمضى نيد وكونسيل اليوم معي، كانا مندهشين أيضًا من عدم زيارة القبطان لنا. هل هو مريض؟ هل هو شديد الانشغال لدرجة تمنعه من زيارتنا؟

قُدم لنا الطعام وسمح لنا التجول بحرية في السفينة، فأدركت أن القبطان لم ينسنا. في اليوم التالي كنت مسرورا لحدوث تغيير؛ إذا أدركت أننا صعدنا إلى سطح المحيط بعد انتشار الهواء النقي في السفينة.

وجدت السلم وصعدت إلى السطح، كانت الساعة السادسة، والجو ملبد بالغيوم، لكن البحر الرمادي كان هادئًا، وبددت أشعة الشمس الضباب، كنت أستمتع بمشهد شروق الشمس حين سمعت صوت خطوات قادمة إلى السطح. استعددت للترحيب بالقبطان نيمو، لكنني رأيت مساعده، نظر إلى البحر، وقال بضع كلمات بالألمانية، ثم غادر. مرت خمسة أيام مماثلة، كل صباح أذهب إلى السطح، ويأتي مساعده كالعادة إلى السطح، لم يظهر كابتن نيمو قط.

شعرت أنني لن أرى ذاك الرجل مرة ثانية، لكن عندما عدت إلى حجرتي في السادس عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، وجدت رسالة فوق الطاولة. كتبت بخط واضح بقلم أسود، جاء في الرسالة:

إلــى البروفيسور آروناكس الموجــود على متن السفينة نوتيلوس:

يدعو القبطان نيمو البروفيسور آروناكس إلى حفلة صيد غدًا في الصباح. سنزور غابات جزيرة كريسبو. يأمل القبطان ألا يكون هناك ما يمنع البروفيسور من المجيء. وسيسره مجيئك بصحبة صديقيك.

القبطان نيمو،

قائد السفينة نوتيلوس

تعجب نيد: «صيد!»

أضاف كونسيل: «وفي غابات جزيرة كريسبو!»

قلت: «لنر أولًا أين تقع جزيرة كريسبو» لم أشعر بالإثارة مثلهما.

توصلنا من الخريطة أن جزيرة كريسبو هي جزيرة صغيرة في منتصف الجزء الشمالي من المحيط الأطلنطي. ذهبنا لتناول العشاء ثم إلى النوم ونحن نتساءل ما الذي ينتظرنا.

عند الاستيقاظ صباح اليوم التالي السابع عشر من نوفمبر/تشرين الثاني، شعرت أن السفينة نوتيلوس كانت واقفة، ارتديت ملابسي سريعًا ودخلت المكتبة.

كان القبطان نيمو ينتظرني هناك، نهض وانحنى تحية وسألني هل أنا مستعد للرحلة.

دخلنا حجرة تناول الطعام، حيث تناولنا فطورنا، تحدث إليّ القبطان نيمو مجددًا عن آليات عمل السفينة. اليوم أخبرني عن تحديات توفير الأكسجين داخل السفينة. استمعت إليه باهتمام لمعلوماته عن عالم البحار وآليات عمل الغواصة.

وبعد أحاديث أخرى عن الهواء وعن أنواع بنادق الصيد التي قد تنجح تحت الماء، أخذني القبطان نيمو عبر الردهة، ناديت على صديقيّ أثناء مروري أمام الحجرات الخاصة بهما، لحقا بنا مباشرة وهما لا يعرفان ماذا ينتظرهما.

الفصل السابع

نزهة على الأقدام

كانت الثياب التي من المفترض أن نرتديها ثقيلة، كانت مصنوعة من المطاط ومعها أحذية طويلة وقفازات. وسريعًا كنت أنا والقبطان نيمو وأحد معاونيه وكونسيل مستعدين. في النهاية، اختار نيد عدم الذهاب معنا. فقد استشعر الرجل المسكين بالغرابة حيال فكرة الرحلة برمتها، وكانت البدلة المطاطية كافية لتجعله يتراجع تمامًا. ربما احتاج إلى الاستراحة من كل هذا الغموض، لعله — لمرة واحدة — أراد أن يسترخي ويسمح لشخص آخر بالبحث عن أجوبة، أيًّا كان السبب فقد غادرنا وتركنا نيد بكل سرور وبدأنا رحلتنا بدونه.

أعطاني أحد أفراد طاقم الغواصة نوتيلوس بندقية مصممة خصوصًا للاستخدام في الماء، أخذتها واستعددت لارتداء خوذتي، كان الجزء العلوي من الثياب به ثلاثة ثقوب يحميها زجاج سميك، هذا سيسمح لنا بالرؤية في كافة الاتجاهات. وعندما عُلقت المعدات على ظهورنا، تمكنت من التنفس في الخوذة.

استعددت للمسيرة بمصباح يتدلى من حزامي وبندقية بيدي. مع ذلك وجدت صعوبة في التحرك بهذه الثياب! لكن لم يكن هناك داع للقلق، شعرت بشيء يدفعني داخل حجرة صغيرة، تبعني كونسيل وانغلق الباب وراءنا، ومجددًا وجدنا أنفسنا في مكان مظلم.

وبعد بضع دقائق، سمعنا صوت أزيز عال، شعرت بالمياه الباردة حول جسدي، انفتح باب آخر، رأينا ضوءًا خافتًا، وفي غضون لحظة أخرى كانت أقدامنا في أعماق البحر.

كيف يمكنني حتى البدء في تفسير روعة السير تحت المياه؟ لم أكن أشعر بثقل الثياب والحذاء وجهاز الأكسجين أو خوذتي السميكة.

كان الضوء من حولي يذهل العقول! اخترقت أشعة الشمس المياه بسهولة، كان من السهل رؤية الأشياء التي تبعدني بمسافة مائة وخمسين ياردة.

خضت في الرمال على مدى ربع ساعة، يا له من مهرجان يسر الأنظار! رأيت زهورًا وقطعًا صخرية ونباتات وقواقع وحياة بحرية. يا له من منظر بديع! كل هذه العجائب التي رأيتها في ربع ميل فقط! لوح لي القبطان نيمو، واصلت السير. تحولت الرمال أسفلنا إلى وحل لزج. بعد ذلك سرنا فوق بساط من الأعشاب البحرية، مع كل خطوة أخطوها، تعلمت المزيد والمزيد عن هذا العالم تحت البحار، تمنيت كتابة الملاحظات، كان لدي الكثير لأكتبه! تخترق الشمس الآن الماء بطريقة مختلفة، وجعلت كل شيء يبدو مختلفًا. نظرت إلى الأسماك والأعشاب التي بدت أنها تستمتع بالسباحة بين الأعشاب. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى قمة الاستمتاع، توقف القبطان نيمو، انتظر حتى أدركته، ثم أشار إلى شيء ضخم في الظلام، شيء بعيد قليلًا.

فكرت في نفسي: «إنها غابة جزيرة كريسبو» لم أكن مخطئًا.

وصلنا أخيرًا إلى حدود الغابة، تألفت الغابة من أشجار ضخمة، كان المكان رائعًا، لم تكن ساق النباتات أو فروعها منكسرة أو ملتوية، وقف كل شيء مستقيمًا، يمكن تفسير سبب نمو هذه النباتات بهذا الشكل علميًّا، لكنني لم أشغل نفسي بالتفكير كثيرًا في الأمر، كنت أمضي وقتي في التأقلم مع الظلام من حولي، استكشفت المكان على مدار ساعة تقريبًا قبل أن يصدر القبطان نيمو إشارة للتوقف، سعدت بأخذ استراحة، رقدت فوق الأعشاب المستقيمة، ساعدتني هذه الراحة القصيرة على الاسترخاء.

وبعد مرور أربع ساعات من السير احتجت إلى غفوة. أغلقت عيني سريعًا خلف الزجاج السميك واستغرقت في نوم عميق.

لا أدري المدة التي استغرقتها في النوم، وعندما استيقظت، بدا أن الشمس تغرب، كان القبطان نيمو قد استيقظ بالفعل، بدأت في بسط ذراعي حين طرحني سريعًا شيء ما أرضًا.

كان عنكبوتًا بحريًّا ضخمًا له عينان مغمضتان جزئيًّا يراقبني على بعد بضع خطوات. بدا في حالة استعداد للانقضاض عليّ، ارتجفت ذعرًا، مع أنني أعرف أن البدلة ستحميني، لم يمض سوى بضع ثوانٍ حتى مات المخلوق القبيح. استخدم القبطان نيمو بندقيته، جعلني ذلك أدرك أنه مع روعة هذا العالم، فمن الممكن أيضًا أن يكون خطيرًا للغاية.

واصلنا السير مجددًا، كانت الأرض مرتفعة إلى حد ما، لاحظت أن المكان يزداد ظلمة وكانت توجد جدران من حولنا، لن تصل أشعة الشمس إلى هنا، من ثم تعذرت الرؤية للغاية. كنت أتحسس خطواتي حينما رأيت فجأة ضوءًا أبيض ساطعًا، فقد أشعل القبطان نيمو مصباحه الكهربي، فعلت أنا وكونسيل مثله.

كان القبطان نيمو يشق طريقه في الأعماق المظلمة للغابة، لاحظت أن الحياة النباتية كانت تختفي ببطء، وأثناء سيرنا، تملكني شعور أنني مراقب، اعتقدت أن هناك مخلوقات بحرية تختبئ في الظلام، حتى إنني رأيت القبطان نيمو يصوب بندقيته في وقت ما، ثم انتظر، ثم تابع السير بحذر. وبعد مرور عدة ساعات بدأنا نبطئ السير، نظرت أمامي لأرى جدارًا من الصخور أمامنا، استغرقت دقيقة لاستيعاب الأمر، كانت هذه جزيرة كريسبو، توقف القبطان نيمو فجأة، ومع إشارة من يديه توقفنا جميعًا أيضًا، بقدر ما كنت أريد تسلق هذا الجدار، أدركت أن هذه نهاية النزهة.

بدأت رحلة العودة، سلكنا طريقًا آخر إلى السفينة. كان ذلك الطريق وعرًا ومؤلمًا للغاية، لكن سرعان ما عاد ضوء الشمس وشعرت بالانتعاش قليلًا، رأيت الأسماك وغيرها من المخلوقات البحرية على الفور. وفي وقت ما رأيت القبطان نيمو يطلق النار تجاه شجيرات بالقرب من سطح المياه. سمعت صوت أزيز منخفض وسقط حيوان بحري أمامنا، كان ذلك المخلوق ثعلبًا مائيًّا ضخمًا، طوله خمسة أقدام وبدا من أنواع الحيوانات التي يستخدم فراؤها في صنع المعاطف في معظم البلدان. التقط رفيق القبطان نيمو الحيوان وألقاه فوق كتفه، وواصلنا رحلتنا.

كنت مسرورًا لعودتنا، إذ كان الهواء الذي زُودت به يقل. كنت أتابع السير حين رأيت القبطان نيمو يهرول باتجاهي، دفعني على الأرض وفعل رفيق القبطان الشيء نفسه مع كونسيل، راقبت الموقف مع استلقاء القبطان نيمو بجواري في ثبات شديد.

تجمد جسدي من الخوف عندما نظرت إلى أعلى ورأيت سمكتي قرش. عرفت من أبحاثي أنها مخلوقات ضارية — أي حيوانات مفترسة يمكنها التهام إنسان كامل بين فكيها.

لحسن الحظ لا ترى هذه الحيوانات ذات الأسنان الحادة جيدًا، فقد مرَّا دون رؤيتنا، كنت سعيدًا للغاية عندما وصلنا إلى النوتيلوس. كل ما أردته الذهاب إلى حجرتي وتناول الطعام والنوم. علمت أن أحلامي ستدور حول مغامرتنا في قاع البحر.

الفصل الثامن

بضعة أيام فوق الأرض

بحلول صباح اليوم التالي، كنت تخلصت من إرهاق اليوم السابق. تحدثت مع القبطان نيمو عن عجائب البحار التي شاهدناها. كانت رؤية أنواع الأسماك والحياة البحرية التي تعيش في أعماق مختلفة في المياه أمرًا مثيرًا للغاية، إذ يملك كل مخلوق ما يلزم للبقاء حيًّا في موطنه البحري. كما سألت أيضًا القبطان عن محيطات العالم وعن أعماق المناطق المختلفة. كان يعرف الكثير من ذاكرته ودون الاستعانة بكتب، قال إن المنطقة التي نوجد بها الآن، في هذا الجزء من المحيط الهادئ، يبلغ عمقها أربعة آلاف ياردة تقريبًا.

«إذا نظرت إلى كافة المحيطات في العالم، وحسبت متوسط أعماقها بحيث تشكل قاع بحر عريض ومسطح، فسيكون الناتج نحو واحد وثلاثة أرباع فرسخ، أو خمسة أميال تقريبًا.» شكلت كلمات القبطان إضافة إلى البحث الذي كنت أجريه وأجابت عن بعض الأسئلة التي كانت تدور في ذهني.

لم أر القبطان كثيرًا على مدار الشهر التالي، أعتقد أننا كنا منشغلين للغاية بدراساتنا ومشاغل الحياة اليومية. حل شهر ديسمبر/كانون الأول سريعًا، كنت أدرس الجزر أثناء مرورنا بها، من وجهة نظر الإنسان العادي، ليست هذه الجزر سوى كتل أرضية تحيطها المياه من كل جانب، أما من وجهة نظري، فهي سلسلة صخرية قرب سطح المياه أو رواسب خلفتها البراكين أو الجبال القريبة. شاهدت الجدران عن كثب أثناء مرورنا بها كل يوم، وباستخدام المصباح الكهربي ظهرت واضحة للغاية، تعلمت قدر المستطاع كلما سنحت لي الفرصة.

مرت أسابيع، صادفنا فيها سفنًا غارقة وأسراب أسماك غنية بالألوان أكثر مما كنت أتخيل، وأجواء عاصفة هزت الغواصة هزًّا. وفي أحد الأيام اهتزت الغواصة فجأة،

فقد ارتطمت بصخرة الآن، لكنها كانت كافية لتتسبب في إيقافها. كان من الممكن أن أعتبر هذا الأمر مشكلة، لكن بدلًا من ذلك رأيته فرصة، اتفق نيد معي في هذا.

«هذه جزيرة، فوق هذه الجزيرة هناك أشجار وتحت هذه الأشجار توجد حيوانات، يمكننا أن نصنع منها اللحم المشوي وشرائح اللحم ....»

سأل كونسيل: «هل سيسمح لنا القبطان بزيارة هذه الجزيرة؟»

كنت أشعر بالفضول أيضًا، حيال ما سيقول القبطان نيمو؛ سألته ووافق بسهولة. وفي تمام الساعة الثامنة، انطلقت أنا وصديقيّ ونحن مسلحون بالبنادق والفئوس من الغواصة.

تملكني شعور رائع لوقوفي على الأرض ثانية! استنشقت جمال الطبيعة من حولي كما استنشق الهواء. أذهلتني ضخامة الأشجار أولًا، وأخذنا من النباتات الزاخرة جوز الهند، التي حصلنا منها على اللبن لشرابه وعلى جوز الهند لتناوله. شاهدنا العديد من العجائب أثناء سيرنا بالغابة، وجدنا حمامًا وتناولناه، لكنه تسبب في فتح شهيتنا أكثر. كانت الخنازير البرية والأرانب قد ملأت بطوننا بما كنا نحلم به، لحم حقيقي. كانت الأسماك على متن الغواصة نوتيلوس شهية، لكننا اشتقنا جميعًا إلى مذاق اللحم، الذي لا يضاهيه مذاق. استمتعنا بوقتنا خارج الغواصة، واسترخينا وتأملنا العالم من حولنا، ولولا مطاردة السكان الأصليون لنا، لكانت رحلة مثالية.

أخبرنا القبطان نيمو أنه إذا اجتمع سكان جزيرة بابو معًا على الشاطئ، فليس هناك شيء نتخوف منه. وبحلول صباح اليوم التالي كان هناك خمسمائة أو ستمائة شخص على الأقل من سكان الجزيرة حولنا، كانوا مفتولي العضلات، يرتدون ملابس بسيطة تتلاءم مع المناخ، كانت بعض النساء تلف الأعشاب والخضروات حول خصرها، وجميع السكان تقريبًا يحملون أقواسًا وأسهمًا ودروعًا واقية على أكتافهم.

تحدثت مع القبطان نيمو عنهم، وأخبرته بمشاعر الخوف التي تملكتني، «علينا فتح أبواب الغواصة غدًا لتجديد الهواء داخلها، من المؤكد أنهم سيقفزون من زوارقهم وسيتسلقون على متن الغواصة.»

أجاب القبطان: «لا بأس، ليأتوا بالداخل إذن، غدًا في تمام الساعة الثالثة والثلث، سيدفعنا المد والجزر بعيدًا عن هذه الصخرة وسنستأنف رحلتنا مرة أخرى.»

استغرقت في نوم عميق، استيقظت في الساعة السادسة صباح اليوم التالي. لم تفتح أبواب الغواصة بعد. كان لا يزال لدينا مخزون هواء، لكنه كان ينخفض بما

ينذر بالخطر. وفي تمام الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، جاء القبطان نيمو إلى الصالون.

قال: «سنبدأ، لقد أعطيت الأوامر بفتح أبواب الغواصة.»

سألته: «وماذا عن سكان الجزيرة؟ ألن يقفزوا عبر الأبواب التي فتحتها؟»

«تعال وسترى.»

كان نيد وكونسيل يراقبان طاقم السفينة حول الأبواب، سمعنا صرخات ذعر وغضب في الخارج، رأينا وجوهًا مخيفة عندما نظرنا إلى الخارج، كان السكان الأصليون يعودون أدراجهم وهم يصيحون بصوت عالي مثلما أتوا. لكن هذه المرة، كان بسبب توجعهم.

لم يلمس سكان الجزيرة سور السفينة عندما حاولوا التسلق على سطحها، بل لمسوا كبلًا أو سلكًا معدنيًّا، شحنه القبطان نيمو بالكهرباء. فأي شخص يلمسه يشعر بصدمة كهربية قوية، ليست بالقوة التي قد تقتل إنسان، لكن الهدف منها إفزاعه. كانت كافية لتجعلهم يتراجعون ويسمحون لنا بالمغادرة.

ومع رحيل سكان الجزيرة وتحرر الغواصة ثانية، سبحت الغواصة في المياه ببطء، وغادرنا لمغامرة ثانية.

الفصل التاسع

مقبرة آمنة

وصلنا إلى منتصف الرحلة الآن، كنا نتجه نحو المحيط الهندي، كانت النوتيلوس تتحرك ببطء وبسلاسة، تساءلت إلى أين سيأخذنا القبطان العظيم في محطتنا التالية، علمت أنه كان يدرس درجات حرارة المياه الآن، فقد أتاحت له هذه الغواصة الرائعة التجريب بما لم يُتح لعالم قبله، فقد تمكن من الحصول على عينات من المياه في أعماق لم يصل إليها رجل قبله.

وفي صباح أحد الأيام، كان الجو عاصفًا مما تسبب في اضطراب واهتياج البحر. كانت هناك رياح شرقية قوية، ذهبت إلى أعلى السطح لرؤية الأفق، وعندما فعلت ذلك، قابلت القبطان نيمو.

ظل بضع دقائق لم يتحرك، كان ينظر خلال عدسة تليسكوب إلى شيء بعيد، وضع التليسكوب وسار إلى الجهة الأخرى من السطح وهو لا يلحظ وجودي. استمر في الوقوف لمشاهدة البحر، لم أستطع تخمين ما يدور بخلده. كانت النوتيلوس على بعد مئات الأميال من أقرب جزيرة.

قررت أن أنظر بنفسي، ذهبت إلى الصالون وأحضرت تليسكوبًا استخدمته بانتظام، لم ألبث أن وضعت عيناي للتحديق في التليسكوب حتى انتزعه أحد من بين يدي.

نظرت حولي، كان القبطان نيمو يقف أمامي، لكنني تعرفت عليه بالكاد، كان يبدو مختلفًا للغاية، فكانت عيناه تنفجران غضبًا، وأسنانه مطبقة وجسده متيبس كان يقبض يديه وهو منتفخ الصدر، لم يتحرك، وتدحرج التليسكوب الذي سقط من بين يديه بين قدميه.

ماذا فعلت لأجعله يستشيط غضبًا هكذا؟ كلا، لم أكن أنا سبب انزعاجه، كانت عيناه لا تزالان تحدقان بالأفق، تحدث إليّ، لم تكن كلماته مفهومة تمامًا.

قال: «لا بد أن تفعل ما اتفقنا عليه.»

نظرت إليه باستغراب، مما جعله يعرف أنني لا أفهم أيًّا مما يقوله.

«لا بد أن تمكث أنت ورفيقيك في حجراتكم حتى أخبركم بغير ذلك.» كانت كلماته قوية، لم يكن في مزاج يسمح بالنقاش.

أجبت: «أنت الربان، لكن هل لي بسؤال؟»

قال: «لا.»

مشيت بعيدًا وأنا متيقن من أنه لا طائل من الجدال، شعر صديقيّ بالحيرة مثلي، انتظرنا في صمت بإحدى الحجرات، وبدلًا من البحث عن إجابات تناولنا الفطور، بعد انتهائنا من الفطور بالضبط انطفأ المصباح الذي كان ينير الغرفة وعم الظلام من حولنا، سرعان ما نام نيد وكونسيل. ورغم محاولاتي المضنية للبقاء مستيقظًا، أغلقت عينيَّ وغلبني النعاس. لا بد من أنه وُضع شيء ما في الطعام ليجعلنا ننام.

استيقظت في اليوم التالي بذهن صافٍ، أبحرت السفينة وكأن شيئًا لم يكن، ربما لم يحدث شيء بالفعل.

التقيت بالقبطان في حوالي الساعة الثانية، كنت في الصالون، أرتب ملاحظاتي عندما فتح الباب.

سألني على حين غرة: «هل أنت طبيب؟»

قلت: «أجل، عملت طبيبًا وجراحًا عدة سنوات.»

«سيد آروناكس، هل يمكن أن تأتي لفحص أحد رجالي؟» بدا القبطان منزعجًا.

سألته: «هل هو مريض؟»

«أجل، اتبعني.»

لحقت بالقبطان إلى سطح السفينة ثم إلى حجرة داخل قسم البحارة من السفينة، وفوق سرير رقد رجل يبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا. لم يكن مريضًا فحسب، بل كان مصابًا أيضًا. كان رأسه مغطى بضمادات غير مثبتة. قمت بحل الضمادات، كان جرحًا عميقًا للغاية، لم أكن أشك في أن الرجل سيموت.

سألت: «ما سبب الجرح؟» كنت أحاول تخيل القوى التي تسببت في هذا النوع من الضرر لبحار.

تجاهل القبطان نيمو سؤالي: «كيف حاله؟»

أطلقت تنهيدة، ثم أخذت القبطان جانبًا لأحدثه على انفراد: «سيموت في غضون ساعتين.»

سأل القبطان: «لكن ما الذي يمكننا فعله لإنقاذه؟» كانت عيناه تتوسلان للمساعدة.

أجبته على مضض: «ليس هناك شيء يا سيدي، لا شيء.»

راقبتُ عيني القبطان نيمو وهما تمتلئان بالدمع، لم أكن أعتقد أن بمقدوره الشعور بالأسف.

لامس القبطان نيمو الرجل برفق وظهرت الدموع في عينه. وللحظات وقفت أراقب الرجل المحتضر. رقد الرجل المريض دون حراك، لكن القبطان كان أكثر شخص أثار اهتمامي، كان يتذبذب بين الاقتراب من البكاء إلى الصلابة التي ذكرتني بأن الرجال لا يبكون عادة. لاحظت ازدياد انزعاجه كثيرًا لوجودي في المحيط، في النهاية أعتقد أنه أدرك أنه ليس لديّ ما أقدمه.

قال القبطان: «بإمكانك المغادرة الآن يا سيد آروناكس.»

تركت الرجلين وحدهما وأنا أشعر بالأسف على كل منهما، لازم البحار المحتضر أفكاري طوال الليل.

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى منصة ربان السفينة، كان القبطان نيمو هناك قبلي، وحالما رآني، جاء مسرعًا نحوي.

«بروفيسور، هل تحب التنزه اليوم؟»

سألته: «أنا وصديقيّ؟»

«لا بأس إذا أرادا ذلك.»

كنا مستعدين في غضون نصف ساعة، غادر القبطان نيمو بصحبة ستة أفراد من طاقم السفينة معنا. وقفت الغواصة في قاع البحر، سرنا على الأقدام على امتداد قاع البحر مدة ساعتين على الأقل، نشاهد خلالها الشعب المرجانية وجمال النباتات، كنا نسير فوق بساط من الزهور مرصع بأبهى آيات الجمال التي تحيط بنا من كل جانب.

توقف القبطان نيمو، وتوقفت أنا وصديقاي بدورنا ونظرنا حولنا، رأيت أفراد طاقم الغواصة يشكلون نصف دائرة حول القبطان، ثم شاهدت أربعة رجال يخرجون أداة طويلة لها شكل مستطيل.

ومع إشارة من القبطان، تقدم أحد الرجال وبدأ في شق حفرة باستخدام بلطة أخرجها من حزامه. فهمت الأمر كله بعد ذلك، كان يحفر مقبرة للرجل الذي توفي ليلًا! جاء القبطان ورجاله لدفن صاحبهم في هذا المقبرة العامة في قاع المحيط.

راقبت الرجال أثناء دفن الرجل وإقامة الصلوات عند قبره، عندما عدنا إلى الغواصة، تحدثت مع القبطان نيمو حول المراسم.

«إنه يرقد في سلام الآن بجانب أصدقائه، في مقبرة الشعب المرجانية؟»
أجاب القبطان: «أجل، لقد نسيه الجميع، لكننا لن ننساه.»
«الرجل يرقد في هدوء يا قبطان، على الأقل هو في مأمن من أسماك القرش.»
أجاب القبطان في جدية: «أجل يا سيدي، في مأمن من أسماك القرش والبشر.»

الفصل العاشر

كنوز البحار

وصلنا الآن إلى الجزء الثاني من رحلتنا في أعماق البحار. انتهى الجزء الأول بالمشهد المؤثر في مقبرة الشعب المرجانية. في الرابع والعشرين من يناير/كانون الثاني عام ١٨٦٨ صعدت إلى السطح وشاهدت ربانًا يقيس ارتفاع الشمس.

كنا نستكشف مياه المحيط الهندي، قد يشعر الشخص العادي بالملل من هذه الرحلة، وقد تبدو الساعات طويلة له، لكن السير يوميًّا على سطح الغواصة، ومشهد المياه الغنية، والكتب بالمكتبة والسجل اليومي للمناظر الطبيعية كان هو النعيم في نظري، فقد شغلت هذه الأمور وقتي بالكامل ولم يكن هناك دقيقة واحدة أشعر فيها بالضجر.

على مدار الأسابيع القليلة التالية، سرتني رؤية الحياة تحت سطح المياه والطيور على امتداد سطح المحيط، لاحظ القبطان نيمو ابتهاجي وقدم إليّ دعوة.

«هذه جزيرة سيلان، وهي تشتهر بمصايد اللؤلؤ. هل تود زيارة إحداها يا سيد آروناكس؟»

«بالطبع يا قبطان.»

سألني: «بالمناسبة، ألا تخشى أسماك القرش؟»

صحت: «أسماك القرش!»

«أجل، أسماك القرش ... أتخشاها؟»

قلت في صدق: «حسنًا يا قبطان، أنا لست معتادًا عليها.»

قال القبطان: «نحن معتادون عليها، ومع الوقت ستعتاد عليها أنت أيضًا، مع ذلك سنكون مسلحين، فمن الممكن أن نرغب في اصطيادها، انتظر حتى الغد يا سيدي، واستعد للمغادرة باكرًا.»

تركني القبطان نيمو وتلك الفكرة تدور في ذهني، استسلمت للخوف من تهديد أسماك القرش، لا شك أن القبطان الماهر لن يضعنا في أي موقف يعرضنا للخطر. أليس كذلك؟

دخل نيد وكونسيل في غضون بضع دقائق، فقد علما بالفعل عن زيارة غد وشعرا بالحماسة، فكرت في أنهما يتمتعان بشجاعة كبيرة لعدم ذكرهما أسماك القرش.

قال نيد: «قبل أن نذهب، أود أن أسألك عن اللؤلؤ، ما هو اللؤلؤ على وجه التحديد؟»

استغربت لسؤال نيد عن اللؤلؤ قبل أن يسأل عن أسماك القرش، لكنني على أي حال أجبته.

بادرت بقول: «اللؤلؤ هو ما ينمو داخل المحار.» ثم أسهبت في شرح التفاصيل التي أظن أنه لم يهتم لأمر العديد منها. عندما رأيت أنه لن يتحدث عن موضوع أسماك القرش، قررت أن أتحدث عنه بنفسي.

قلت وأنا أحاول تقليد نبرة القبطان نيمو التي تنم عن عدم اكتراث: «بالمناسبة، هل تخشى أسماك القرش، يا نيد الشجاع؟»

أجاب: «بالطبع لا، إن وظيفتي في الحياة هي صائد حيتان بالرماح.»

قلت: «لكن هذا الأمر مختلف تمامًا يا صديقي.» كنت أحاول أن أجعله يرى الفارق بين الحالتين «ماذا ستفعل إذا صادفك قرش وأنت لا تبحث عنه؟»

ضحك نيد قائلًا وهو يحاول التخلص من السؤال: «سأتعامل معه حينها.» أدركت أنني لن أستطيع إثارة مخاوفه، لذا قررت أنه من الأفضل الاحتفاظ بمخاوفي لنفسي.

وفي تمام الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي، انطلقنا للبحث عن اللآلئ. غادرنا في مركب، وأخذنا نجدف لنصل إلى مصايد اللآلئ.

تحدث القبطان نيمو من واقع خبرته: «في غضون شهر، ستكتظ هذه المنطقة بمراكب الصيد، وستستحق الأشياء التي سيعثرون عليها وقتهم وعناءهم.»

ارتدينا ثيابنا المطاطية واستعددنا للذهاب حيث يذهب الغواصة المتحمسون. أثناء سيرنا رأينا كنوز البحر، كانت اللآلئ رائعة الجمال! انبهرت بعددها وحجمها. صادفنا صياد هندي، كان على الأرجح رجلًا فقيرًا اضطر إلى استغلال وقته في البحث عن أي لآلئ يمكنه العثور عليها، لكن لم يلحظنا الغواص. راقبنا في اهتمام نزول الرجل فجأة إلى قاع البحر، وأخذ يحرك يده اليمنى في ذعر محاولًا الصعود إلى سطح المياه، فهمت سبب خوفه، كان هناك سمكة قرش هائلة الحجم تأتي في اتجاهه، كانت عينا السمكة تشتعل غضبًا وفمها مفتوح، وقفت بلا حراك من الفزع.

التف جسد سمكة القرش استعدادًا لمهاجمة الرجل الهندي، رأيت القبطان نيمو يرتفع في المياه فجأة، ويجهز سكينه ويتوجه مباشرة نحو الحيوان المفترس، وفي اللحظة التي كان ينقض فيها القرش على الرجل لقسمه نصفين بفكه، لاحظت السمكة القرش عدوها الجديد.

بدأت المعركة، غرز القبطان سكينه في جانب القرش، رأيته يتألم، لكنه كان ضخمًا، لن يقضي عليه جرح واحد. تعارك الاثنان، رأيت القبطان نيمو يتقهقر من الإعياء، فمعركته ضد هذا الحيوان الضخم صعبة للغاية حتى لقبطان مثله. سقط القبطان على الأرض، فتح القرش فكه على آخره، كان من الممكن أن ينتهي كل شيء لمحب البحار، لكن نيد اندفع في اتجاه القرش وفي يده رمح وغرس رأسه الحاد في القرش، انتهت المعركة.

قضينا الدقائق القليلة التالية في محاولة إفاقة الرجل الهندي، بدأ الرجل يستعيد وعيه بنجاح، فتح عينيه، ظهرت مشاعر الذعر على وجهه لدى رؤيته أربعة رجال ينحنون فوقه. وقف ولا يزال مرتبكًا مما حدث.

عندما علم القبطان أن الرجل استعاد وعيه، أخرج من جيبه صرة من اللآلئ ووضعها في يد الرجل. قبل الرجل هذا الكنز الصغير، هدية من ملك البحار لصياد فقير، بيد مرتجفة. اتضح من نظرات الرجل الحائرة أنه لا يميز نوع المخلوقات التي يدين لها بالمال وبحياته.

سار الموكب فوق الأمواج في طريق العودة، وبعد بضع دقائق من مغادرتنا، رأينا جثة القرش طافية فوق المياه، لقد حالفنا الحظ جميعًا لنجاتنا من الموت.

أدركت شيئين من هذه التجربة، أولهما أن القبطان نيمو رجل شجاع، الشيء الثاني أن هذا القبطان الطيب يهتم حقًّا بالبشر، إن هذا الرجل مليء بالمفاجآت.

الفصل الحادي عشر

خطة هروب

على مدار الشهر التالي، سافرنا إلى العديد من الأماكن، وفي منتصف فبراير/شباط، صعدت غواصة النوتيلوس إلى سطح البحر المتوسط.

أخذني نيد جانبًا للتحدث معي عند معرفته بموقعنا.

قال: «هناك شيء بسيط للغاية أود إطلاعك عليه، أريد مغادرة غواصة النوتيلوس.»

لم أكن أريد منع صديقي من نيل حريته، لكنني لم أكن مستعدًا لمغادرة الغواصة. كنت أتعلم الكثير والكثير من رحلتي ومن القبطان نيمو العظيم. كل يوم كنت أقترب من الانتهاء من دراساتي، هل ستتاح لي مرة أخرى مثل هذه الفرصة لمشاهدة عجائب العالم؟ بالطبع لا!

قلت: «صديقي نيد، أجبني بصدق: هل سئمت وجودك على متن الغواصة؟ هل تشعر بالأسف لمقابلتك القبطان نيمو؟»

صمت نيد بضع دقائق قبل أن يجيب، بدأ بقوله: «حسنًا، أنا لا أكره رحلتي في أعماق البحار، بل أشعر بالسعادة لقيامي بهذه الرحلة، لكن مرت فترة طويلة على وجودنا هنا، أريد أن ينتهي هذا الأمر.»

«سينتهي يا نيد.»

«أين ومتى؟»

قلت: «لا أدري، ربما بعد ستة أشهر.»

«وأين سينتهي بنا الحال بعد ستة أشهر.»

«ربما في الصين؟ أنت تعرف أن غواصة النوتيلوس متجول سريع.»

بدا نيد يفكر في هذا الأمر لحظة.

قال وهو مستغرق في التفكير: «سيدي، إذا منحك القبطان نيمو حريتك اليوم هل ستذهب؟»

أجبت: «لا أدري.»

استأنف حديثه: «وماذا لو قرر أن سؤاله هذا لمرة واحدة، وأنه لن يسألك أبدًا؟»

«صديقي نيد، لا يمكنني إجابة هذا السؤال الآن، مع ذلك أعرف بالتأكيد أن هناك شيئًا واحدًا واضحًا: نحن في أسر القبطان نيمو، فقد أحضرنا هنا وفي ذهنه أننا سنبقى هنا ما دام أنه هنا، إذا أعددنا خطة للمغادرة، فلا بد من أن تكون خطة هروب، لا يمكنه اكتشاف أمرها.»

قال نيد في تفاؤل: «أوافقك الرأي.»

«إذا غادرنا، أو متى ما غادرنا، فلا بد أن نجعل ذلك في نطاق محاولتنا الأولى، إذا فشلنا، فلن نجد فرصة أخرى، سيتولى القبطان نيمو مراقبتنا بنفسه، كما أنه لن يسامحنا أبدًا.»

سألني نيد: «إذن عندما يأتي الوقت المناسب الذي نرى فيه أن لدينا فرصة جيدة للهروب، سينبغي لنا استغلالها؟ لا يهم إذا جاءت هذه الفرصة بعد يومين أو بعد شهرين من الآن؟»

«أجل، والآن يا نيد هل يمكنك أن تخبرني ماذا تقصد «بفرصة جيدة للهروب»؟» انتظرت إجابة رفيقي.

«ستكون في ليلة مظلمة، ستكون غواصة النوتيلوس على بعد مسافة صغيرة من ساحل أوروبا.»

سألت وأنا أخشى الجواب: «وهل سيكون سبيل إنقاذ أنفسنا هو السباحة إلى الشاطئ؟»

قال نيد: «أجل، إذا كنا على مقربة كافية من الشاطئ وإذا كانت الغواصة طافية على السطح في ذلك الوقت. لكن إذا كانت الأرض بعيدة والغواصة تحت الماء ....»

سألته: «ماذا إذن؟»

أجاب نيد: «في هذه الحالة، سيتعين الاستيلاء على الغواصة، أعرف طريقة تشغيلها، يمكنني الوصول إلى غرفة التحكم والتسلل والصعود إلى السطح دون أن يعلم القبطان نيمو بخطتنا.»

استمعت جيدًا إلى خطته.

«راقب فرصتنا للهرب يا صديقي، لكن تذكر أن خطأ واحدًا سيدمرنا.»

أجاب نيد: «لن أنسى يا بروفيسور.»

«والآن يا نيد، هل تود معرفة رأي في خطتك؟»

«بالطبع يا سيد آروناكس.»

«أعتقد أن هذه الفرصة لن تأتي لنا أبدًا.»

«لماذا؟»

«لأن القبطان نيمو يعرف أننا لم نتخل عن أملنا في الحرية، وسيظل يراقبنا، خاصة عندما نكون على مقربة من ساحل القارة الأوربية.»

قال نيد وهو يهز رأسه: «سنرى.»

استطردت: «نيد، دعنا نتوقف هنا، لا تقل كلمة أخرى حول هذا الموضوع، عندما يأتي اليوم المناسب، أخبرنا به، سنتبعك، أنا أثق بك تمامًا.»

وبهذا أنهيت حديثنا.

الفصل الثاني عشر

ظواهر غريبة

كان البحر الذي كنا نجتازه مختلفًا للغاية حتى بدا دومًا أن هناك شيئًا جديدًا ومذهلًا يجب دراسته. وفي إحدى الليالي كنت في الصالون أدرس أنواع السمك في الأرخبيل. دخل القبطان نيمو الغرفة، لم يلحظ وجودي، بدا أنه غارق داخل عالمه الصغير، لم أقاطعه، وأخذت أتجول وأشاهد أسماك القوبيون التي صادفتها الغواصة الآن. ساعدت هذه الأسماك الصغيرة في إجراء دراسة رائعة وفي قضائي وقتًا ممتعًا.

في منتصف عملي ظهر رجل في المياه، كان غواصًا يحمل حافظة جلدية بحزامه، في البداية اعتقدت أنه قد يكون جثة بحار تائه، لعله رجل مسكين سقط من فوق المركب أو لعله ضحية أسماك القرش، لكنه كان حيًّا، كان يسبح بقوة، يصعد إلى السطح بين الحين والآخر ليلتقط أنفاسه.

التفتُّ إلى القبطان نيمو وصحت: «هناك رجل غارق! علينا إنقاذه!»

لم يجيبني القبطان، بل جاء وانحنى فوق النافذة، لامس الرجل الغواصة بيده ووضع وجهه فوق الزجاج، كان ينظر داخل الغواصة إلينا.

ومن دواعي دهشتي، أشار القبطان نيمو له، أجابه الغواص بيده، وسبح مباشرة نحو سطح المياه، ولم يظهر مجددًا.

قال القبطان نيمو: «لا تقلق، هذا بيسكا، إنه غواص جريء، فهو معتاد للغاية على البحار، يقضي في البحر وقتًا أطول مما يقضيه على اليابسة، وهو دائم التنقل بين جزيرة وأخرى.»

تجاهل القبطان وجودي مجددًا، ومر نحو خزانة لها أقفال حديدية، غطاؤها من النحاس، ويوجد بداخلها سبائك ذهبية، من أين حصل على هذا الذهب؟ كم تبلغ قيمته؟ ما الذي ينوي فعله بهذا الذهب؟

لم أنطق كلمة واحدة، شاهدت القبطان نيمو يأخذ السبائك الذهبية واحدة تلو الأخرى وينظمها داخل الخزانة. خمنت أن داخل الخزانة على الأقل أربعة آلاف باوند من الذهب.

أغلق القبطان الصندوق وكتب عنوانًا على الغطاء. وبعد أن أنهى ذلك ضغط على ذر لاستدعاء أربعة رجال. وبكل ما أوتي هؤلاء الرجال من قوة قاموا بدفع الصندوق خارج الصالون، وفي تلك اللحظة، استدار القبطان نيمو إليّ.

قال: «ماذا كنت تقول يا سيدي؟»

«لم أقل شيئًا يا قبطان.»

«إذن، طابت ليلتك.»

استدار القبطان وغادر الصالون.

عدت إلى حجرتي لأفكر في الأمر، لم أستطع النوم، بعد ما شاهدته للتو. كنت أستلقي على السرير عندما شعرت بالغواصة تصعد إلى السطح. تمكنت من سماع مركب صغير ينطلق عبر الأمواج. وبعد مرور ساعتين، سمعت الضجيج نفسه مرة أخرى. عاد المركب ونزلت الغواصة مرة أخرى إلى عمق البحر. إذن، تم تسليم هذه الملايين.

في اليوم التالي تحدثت إلى نيد وكونسيل عن الذهب، شعرا بالدهشة مثلي تمامًا، لم نستطع التوصل إلى إجابة ممكنة.

عدت إلى الصالون استغرقت في العمل ومراجعة الملحوظات حتى الساعة الخامسة مساءًا، وعند نهاية اليوم، شعرت بازدياد حرارة الغواصة، بدا ذلك الأمر غريبًا للغاية، وسرعان ما زادت الحرارة بالفعل، حتى إنني فكرت في وجود حريق بالغواصة.

كنت في طريقي لمغادرة الصالون حين دخل القبطان نيمو، اتجه نحو الترمومتر، وتفحصه، ثم استدار إليّ.

تحدثت قبل أن يتحدث هو: «إذا ارتفعت الحرارة أكثر من ذلك، فلن نستطع تحملها.»

قال القبطان: «أوه، لن ترتفع الحرارة أكثر ما لم نرد ذلك.»

سألت في لهفة: «هل بإمكانك خفض الحرارة؟»

قال: «كلا، لكن يمكننا الابتعاد أكثر عن المكان الذي بدأت فيه الحرارة في الارتفاع، نحن نطوف في تيار مياه تغلي.»

قلت في دهشة: «أهذا ممكن؟»

«انظر!»

فُتحت الأبواب حول النافذة ورأيت البحر أبيض اللون تمامًا، كان هناك دخان خفيف يلتف حول الأمواج، التي كانت في حالة غليان وكأنها مياه فوق موقد. وضعت يدي على إحدى النوافذ، كانت شديدة السخونة حتى إنني أبعدتها سريعًا.

فسر القبطان نيمو: «هذا هو الجزء البركاني في البحار، هذه ظواهر غريبة، فالجزر تهبط تحت الأمواج لتطفو مرة أخرى بعد ذلك.»

مع مرور الوقت، تحول البحر، الذي كان أبيض اللون، إلى اللون الأحمر. كنت أشعر بالاختناق وألهث لتنفس الهواء.

أصدر القبطان أمرًا، غادرت الغواصة نوتيلوس البقعة الساخنة، وبعد مرور خمسة عشر دقيقة، كنا نتنفس الهواء النقي في سطح المحيط. وعندما نظرت إلى الأمواج، خطرت ببالي فكرة، إذا اختار نيد هذا الجزء من البحر لهروبنا، فلن ننجح في اجتياز البحر أحياء.

الفصل الثالث عشر

الهروب

بحلول نهاية فبراير/شباط، كانت الغواصة نوتيلوس تتحرك في مياه المحيط الأطلنطي في سلاسة، قطعنا ما يقرب من عشرة آلاف فرسخ في ثلاثة شهور ونصف. وهذه المسافة أكبر من الدائرة الكبيرة لكوكب الأرض! لكن إلى أين نتجه الآن؟ لقد أنهينا توًا جولتنا في البحر المتوسط. كان بحرًا رائعًا لدراساتي، والآن عدنا إلى سطح الأمواج، مما وفر لي مجددًا بهجة السير اليومي على سطح الغواصة.

شعر نيد بالانزعاج لأننا لن نملك فرصة الهرب من الغواصة، كانت فكرة الحرية هي ما يشغل باله دائمًا.

«أعرف أنك غاضب يا صديقي أنك لن تتمكن من تنفيذ خطتك، لكن محاولة مغادرة الغواصة نوتيلوس في هذه الحرارة كان سيودي بحياتنا.»

لم يجيبني نيد، كان متجهمًا.

قلت: «لننتظر ونرى، أنا لم أفقد الأمل بعد، سنكون على مقربة من فرنسا وإنجلترا خلال الأسابيع القادمة، وسنتمكن من العثور على المساعدة هناك بسهولة.»

حدق نيد إليّ: «سنغادر الليلة.»

شهقت من الصدمة، لم أكن مستعدًا لما قاله، حاولت أن أجيبه لكنني تلعثمت وتشوشت الأفكار في ذهني.

استطرد نيد: «نحن اتفقنا على الانتظار حتى الوقت المناسب، والوقت المناسب قد حان، سنكون الليلة على بعد بضعة أميال فقط من ساحل إسبانيا، والجو ملبد بالغيوم، ستهب الرياح بقوة، لقد وعدتني وأنا اعتمد عليك.»

التزمت الصمت وأنا لا أعرف ماذا أقول.

قال: «الليلة الساعة التاسعة، لقد أخبرت كونسيل بالفعل، سيكون القبطان نيمو في حجرته في ذلك الوقت، ولن يتمكن طاقم السفينة من رؤيتنا، سنسلك أنا وكونسيل طريق السلم الرئيسي، عليك المكوث في المكتبة في انتظار إشارتنا، والمركب جاهز، كل شيء مجهز لمغادرتنا الليلة.»

«لكن البحر مضطرب.»

قال نيد: «ربما، لكن علينا المخاطرة، نحن نريد أن ننال حريتنا! إلى جانب أن المركب متين، والسير بضعة أميال في وجود رياح عاتية تحملنا ليس مشكلة كبيرة. إذن الوداع حتى الليل.»

وبهذه الكلمات غادر نيد، جلست هناك أتساءل كيف سنتمكن من هذا الأمر، بإمكاني الذهاب إلى القبطان نيمو وإطلاعه على الخطة، لكن حينئذ سأغير المستقبل لصديقيّ، فهما يتحرقان شوقًا إلى نيل حريتهما، كنت مرتبكًا، شعرت بنزول الغواصة أسفل أمواج المحيط الأطلنطي أثناء ترتيب أفكاري. لم أستطع التقرير بين نيل الحرية ومغادرة الغواصة نوتيلوس.

مرت ساعات مروعة! أتصور أحيانًا وصولنا إلى الشاطئ في أمان وقد نلنا حريتنا، وأحيانًا أخرى أتصور حدوث شيء يمنعنا من المغادرة، وبدلًا من الشعور بالإحباط كما سيشعر أصدقائي، أشعر بالبهجة.

ذهبت إلى الصالون مرتين، أردت فحص البوصلة، أردت معرفة هل تتجه الغواصة نوتيلوس إلى الساحل أم تتجه بعيدًا. كانت الغواصة تسلك مسارًا من شأنه إنجاح خطة نيد، لم أكن مضطرًا حقًّا للتحضير للمغادرة، فكانت ملاحظاتي كل ما أملك.

بدأت في التفكير في القبطان نيمو، كيف سيشعر حيال هروبنا؟ لم أملك سببًا للأسف عليه، فمع كل هذا، قد أرغمنا على المكوث هنا ضد رغبتنا، ومع ذلك تساءلت هل سيشعر بالانزعاج من ذلك.

لم أر القبطان منذ عدة أيام، هل ستتسنى لي الفرصة لرؤيته قبل مغادرتنا؟ تمنيت ذلك وفي نفس الوقت لم أرد ذلك. انتظرت، كان أطول يوم في حياتي، بدأ صبري ينفد.

قُدم لي العشاء في حجرتي كالعادة، تناولت القليل من الطعام فلم أكن أشعر بالجوع، تركت الطاولة حوالي الساعة السابعة، يفصلني الآن مائة وعشرين دقيقة بيني وبين لحظة انضمامي لصديقيّ للرحيل. تسارعت نبضات قلبي بقوة، كان شعور الذعر يزداد داخلي كل دقيقة.

أردت رؤية الصالون للمرة الأخيرة، ذهبت إلى الطابق السفلي إلى المتحف حيث أمضيت وقتًا كبيرًا رائعًا، نظرت إلى كل ما يضمه من ثروات وكنوز، كان من الصعب على رجل مثلي ترك كل هذا وراءه.

أثناء مروري بالصالون، اقتربت من باب غرفة القبطان نيمو، ومن دواعي دهشتي كان الباب مفتوحًا، تراجعت للخلف سريعًا، إذا كان القبطان في غرفته يمكن أن يراني، لكنني لم أسمع أي شيء، فاقتربت، كانت الحجرة فارغة، فتحت الباب وخطوت بضع خطوات للأمام.

فجأة دقت الساعة الثامنة، وقعت عيناي على البوصلة، كنا لا نزال نتجه نحو الشمال، كانت السرعة عادية وكنا على عمق ستين قدمًا تقريبًا.

عدت إلى غرفتي وارتديت ملابس تبعث على الدفء، ارتديت حذاء البحر، وغطاء رأس مصنوع من جلد ثعلب الماء، ومعطفًا مبطنًا بجلد الفقمة، أصبحت جاهزًا وانتظرت.

وفي تمام الساعة التاسعة وبضع دقائق، وضعت أذني عند باب حجرة القبطان، لم أسمع أي ضجيج، عدت إلى الصالون الذي كان فارغًا.

فتحت الباب المتصل بحجرة المكتبة، كل شيء هادئ هناك أيضًا. وقفت عند الباب المؤدي إلى السلم الرئيسي وانتظرت إشارة نيد.

وفي تلك اللحظة، توقفت حركة الغواصة. هذا يعني أننا نقف فوق قاع المحيط، ازداد شعوري بالقلق، تمنيت أن أعثر على نيد وأخبره أن يؤجل الهروب.

انفتح باب الصالون ودخل القبطان نيمو، رآني وقال: «ها أنت ذا يا سيدي! كنت أبحث عنك، هل تعرف تاريخ إسبانيا؟»

لم أستطع الإجابة من فرط الشعور بالتوتر.

سأل القبطان نيمو مجددًا: «هل سمعت سؤالي، هل تعلم تاريخ إسبانيا؟»

قلت: «إلى حد ما.»

بدء القبطان نيمو حديثه: «إذن اجلس وسأخبرك بقصة غريبة.»

استمعت إلى القبطان وهو يبدأ سرد قصته، بدأت القصة في عام ١٧٠٢، كنت أعلم معظم التاريخ الذي كان يقصه علي، لكنني ما زلت لا أفهم المغزى من القصة هذه.

«لذا في ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول، وصلت السفن الإنجليزية خليج فيجو، قاتل الأميرال شاتو-رينو بشجاعة، لكنه علم أن الثروات التي يملكها قد تقع في يد العدو، لذا أحرق كل السفن التي تحمل الكنوز، فغرقت في أعماق المحيط.»

وعند هذه النقطة وقف القبطان وأمرني باتباعه، كان الصالون مظلمًا لكن الأمواج تتلألأ خارج النافذة الزجاجية، تفحصتها بعيني.

بدت المياه على بعد نصف ميل من الغواصة نوتيلوس تتلألأ، كان القاع الرملي نظيفًا ولامعًا، بعض أفراد الطاقم كانوا يزيلون الحقائب المهشمة للوصول إلى الكنوز. والكنوز التي عثروا عليها كانت أجمل مما يمكن أن يصفه الكلام، كانت هناك حقائب ضخمة تحوي ذهبًا وفضة، وكومات من المجوهرات، امتلأت الرمال بهذه الكنوز، التقط الرجال قدر استطاعتهم، وحملوها إلى الغواصة، ووضعوها بالداخل، ثم خرجوا لجلب المزيد.

فهمت الآن، كان هذا مشهد معركة ٢٢ أكتوبر/تشرين الأول ١٧٠٢. في هذه البقعة تمامًا غرقت السفن المليئة بالكنوز التابعة للحكومة الإسبانية، وهي الآن مكان اختباء القبطان نيمو. فالبنك الخاص به هو أكثر بقعة أمانًا يستطيع الإنسان حفظ كنوزه بها على وجه الأرض.

سأل القبطان مبتسمًا: «هل كنت تعلم أن البحر يحوي مثل هذه الجواهر الثمينة؟»

أجبت: «أجل، لكنني لم أعرف قدرها، وبالتأكيد لم أعرف مكانها.»

«إذا حاولت أي دولة المجيء للاستيلاء على هذه الثروات من قاع المحيط، فسيكون أمرًا سخيفًا، فسوف تنفق من المال لجلبها قدرًا أكبر مما ستحصل عليه في النهاية. لكن باستطاعتي الاستحواذ على هذه الكنوز بسهولة، لقد عثرت عليها ليس في خليج فيجو فحسب، لكن في آلاف البقاع الأخرى حيث غرقت السفن.» بدا القبطان نيمو سعيدًا للغاية بنفسه. «لكن ماذا عن الرجال الذين يحاولون خوض المغامرة وحدهم ولا يحصلون على شيء؟ فكر في المال الذي سينفقونه، وهم لا يدرون أنك أخذت هذه الكنوز بالفعل! هل هذا عدل حقًّا لهم؟»

لم ألبث أن أنهيت كلامي حتى أدركت أنني جرحت مشاعر القبطان.

«هل تعتقد أنه من الظلم حصولي على هذه الثروات؟ كيف لك أن تعرف أنني لن أستغلها على أحسن وجه؟ هل تعتقد أنني لا أعرف حقًّا أن هناك أشخاصًا في العالم يشعرون بالبرد والجوع؟»

توقف القبطان نيمو عن الحديث بعد هذه الجملة الأخيرة، لعله شعر بالاستياء للغاية تجاه ما قلته. لكنني خمنت أنه أيًّا كان السبب الذي يجعله يرغب في مشاركة ثروته يجعل منه رجلًا لا يزال قلبه ينبض لمعاناة الناس. فهمت الآن الأشخاص المقصودين

بهذه الكنوز عندما كانت تبحر الغواصة في مياه جزيرة كريت. وأثناء إبحارنا حول العالم، أعطى القبطان العظيم الكنوز إلى الفقراء والجوعى. ساعد المحتاجين حول العالم، فالرجل الذي اعتقدت أنه يكره البشر كان أحد أكثر الناس عطفًا في العالم، وقلب القبطان الطيب هو كنز أيضًا.

رفضت عرض القبطان بالخروج مع أفراد الطاقم. بدلًا من ذلك، راقبت من النافذة الرجال وهم يتعاملون مع كنوز كثيرة أكثر مما توقعت وجوده يومًا. انتابني شعور بالراحة وأنا أتخيل الأشخاص الذين ساعدتهم كنوز البحر هذه على البقاء.

الفصل الرابع عشر

نزعة تحت المطر

في صباح اليوم التالي، التاسع عشر من فبراير/شباط، دخل نيد غرفتي، توقعت هذه الزيارة، بدا محبطًا للغاية.

قال: «حسنًا، سيدي؟»

قلت: «حسنا يا نيد، لقد فقدنا فرصتنا ثانية.» حاولت التظاهر بالإحباط من أجله.

قال نيد: «أجل، قرر القبطان التوقف في الوقت الذي خططنا فيه لمغادرة الغواصة بالضبط.»

«أعلم، كان عليه تسوية بعض الأمور مع صاحب البنك.»

تعجب نيد: «صاحب البنك؟»

«حسنًا، أعتقد أنه يمكنني قول «بقعته الخاصة»، وبها أقصد قاع المحيط، فثرواته هنا في مكان أكثر أمنًا من الخزائن باليابسة.»

أخبرت نيد بعد ذلك عما حدث أمس، كنت أتمنى أن يغير رأيه حيال الرحيل، بدلًا من ذلك أبدى شعوره بالإحباط أنه لم يتمكن من التنزه في بقعة معركة فيجو.

قال نيد: «حسنًا، لا تهتم بما حدث أمس، ما زال أمامنا الليلة.»

سألت: «أي اتجاه ستسلك الغواصة نوتيلوس؟»

أجاب نيد: «لا أدري، سنكتشف عند الظهيرة.»

عاد نيد إلى كونسيل، ارتديت ملابسي وذهبت إلى الصالون، لن يسعد نيد بالاتجاه الموجود بالبوصلة، فكنا نغادر أوروبا.

لم أشعر بالأسف حقًّا، فسأتمكن من العودة إلى عملي بقدر من الشعور بالهدوء.

في تلك الليلة حوالي الساعة الحادية عشرة، فوجئت بزيارة القبطان نيمو، سألني هل أريد رؤية العالم السفلي بالمحيط ليلًا.

«أحذرك أن الطريق سيكون شاقًّا، سنسير طويلًا، وسنضطر إلى تسلق جبل، أيضًا الطرق وعرة.»

لم أضطر إلى التفكير طويلًا.

«أنا مستعد!»

ارتدينا ملابس الغطس بمساعدة أفراد الطاقم، لاحظت أنني والقبطان فقط من سيقوم بهذه المغامرة، فكرت قليلًا في شعور نيد بالغضب لأنه لم تتم دعوته مرة أخرى لمغامرة. لكن لم يكن لدي متسع من الوقت للقلق حيال ذلك، في غضون بضع لحظات، كنا مستعدين.

سألت: «أين المصابيح الكهربية؟»

أجاب القبطان: «ستكون عديمة الجدوى.»

لا أعتقد أنني أخطأت السمع لكنني لم أشك فيما يقول. اختفت رأس القبطان داخل صندوق معدني، ومع بضع طرقات وسحبات، كنا نسير معًا في قاع المحيط الأطلنطي.

كان منتصف الليل تقريبًا والمياه مظلمة للغاية، لكن القبطان أشار إلى بقعة حمراء على بعد ميلين من الغواصة نوتيلوس. لم يكن لدي أي فكرة عن ماهية هذه البقعة أو لماذا كانت هناك، أدركت فقط أننا كنا نتجه نحوها.

أثناء سيرنا تمكنت من سماع صوت طقطقة، استغرقت دقيقة للتوصل إلى الصوت، أمطار! كانت الأمطار ترتطم بالأمواج بقوة في منتصف العاصفة! لم أستطع كبح الضحك لهذه الفكرة الغريبة!

واصلنا سيرنا، لاحظت أن التربة أصبحت مغطاة بالحجارة أكثر وأكثر، وأصبح الضوء الأحمر البعيد أكثر لمعانًا، حاولت تأليف قصص في ذهني عن المكان الذي نتجه إليه، أدركت أن القبطان نيمو مر بهذه الطريق من قبل، تبعته مدركًا أننا سنصل هناك في أمان.

كانت الواحدة صباحًا عندما وصلنا إلى المنحدرات الأولى للجبل، لكن للوصول إليها، اضطررنا إلى عبور منطقة الأشجار الميتة، هذه الأشجار، التي ليس بها أوراق أو عصارة، قد سقطت، كانت ممتزجة بالطحالب والأعشاب البحرية وغير ذلك من النباتات والحيوانات، بدا من المستحيل اجتيازها، اتبعت مرشدي الذي لا يصاب بالإنهاك أبدًا على ما يبدو. تسلقنا الصخور واستخدمنا عصا للقفز فوق الشقوق والحفر.

بعد مرور ساعتين من مغادرتنا الغواصة نوتيلوس، عبرنا خط الأشجار ورأينا قمة الجبل ترتفع مائة قدم فوقنا، تجمد الدم في عروقي من رؤية علامات الحياة البحرية

حولي، كان هناك استاكوزا ضخمة الحجم تحرك مخالبها تجاهنا، وسرطان البحر يصوب براثنه نحونا كالبنادق، قرون استشعار ضخمة سدت طريقنا، مما جعلني أشعر بأنني موجود في غير محلي.

عندما شققنا طريقنا خلالها وصلنا إلى أرض مرتفعة، كان المشهد أمامي مدهشًا، كل شيء من صنع الإنسان وليس من صنع الطبيعة، كان هناك كومات شاهقة من الحجارة، على هيئة قصور ومعابد. وبدلًا من اللبلاب البحري، كان هناك نباتات لخضراوات، لكن ماذا كان هذا المكان؟ مَن وضع هذه الأحجار هنا؟ أين أحضرني القبطان نيمو؟

واصلنا سيرنا حتى القمة، نظرت أسفل الجانب الذي تسلقته الآن، وقعت عيني على مساحة شاسعة مضيئة. في واقع الأمر، كان الجبل بركانًا.

كانت هذه القمة تقذف بحمم ملتهبة في صورة حجارة ومواد سائلة. كانت المنطقة مضاءة كالمصباح الكهربي، تتبعت بعيني كتل الحمم الحمراء أشاهدها وهي تسقط في الأسفل. ما رأيته جعلني أهز رأسي. هناك تمتد مدينة، مدمرة ومنهارة، كانت أسقفها ممتدة في مواجهة السماء وانهارت معابدها. كانت هناك جدران غارقة، شوارع فارغة وموانئ كانت في السابق ترسو المراكب عند حوافها.

أين أنا؟ يجب أن أعرف! حاولت التحدث، لكن القبطان نيمو أوقفني بإشارة من يده، والتقط قطعة من حجر الطباشير، وذهب إلى صخرة سوداء، وكتب كلمة واحدة:

جزيرة أتلانتس.

لم أستطع تصديق ما قرأت! جزيرة أتلانتس، القارة القديمة بالمحيط الأطلنطي، هل هذا معقول؟ قيل إن هذه القارة غرقت تحت البحر نتيجة بركان ضخم ولم يعثر عليها أحد قط، في واقع الأمر صدق العديد من الناس أنها لم تكن موجودة من الأساس، لكن إذا كانت موجودة، وربما هي موجودة، عرفت أن القبطان نيمو سيكون الشخص الذي عثر عليها. في كلتا الحالتين، أدركت أنني أنظر إلى مدينة عتيقة للغاية.

تجولت في المكان، تحسست بيدي أنقاضًا عمرها آلاف السنين، حاولت أن أرسخ في ذهني كافة تفاصيل هذا المنظر البديع، نظرت تجاه القبطان نيمو، كان ينحني فوق حجر مغطى بالطحالب، ويقف ثابتًا بلا حراك. هل كان يحلم بهؤلاء الرجال اللذين اختفوا منذ عهد بعيد؟ تمنيت بشدة أن أعرف ما يجول في خاطره في تلك اللحظة.

مكثنا في هذا المكان مدة ساعة، حفظت عن ظهر قلب الأرض أسفل الحمم اللامعة والاهتزازات أسفل قدمي. حتى إن الصوت سوف يظل معي إلى الأبد. لن أنس أبدًا ما أراني إياه القبطان.

الفصل الخامس عشر

منجم الفحم

في اليوم التالي، العشرين من فبراير/شباط، استيقظت متأخرًا للغاية، كانت الساعة الحادية عشرة قبل أن أرتدي ملابسي وأتجه نحو الصالون لتفقد البوصلة لمعرفة اتجاهنا، اتضح أننا نتجه جنوبًا بسرعة ٢٠ ميلًا في الساعة وفي عمق يبلغ خمسين قامة.

لاحظت أنواع الأسماك خارج النافذة، لقد رأيت الأسماك الأكثر ندرة كثيرًا حتى إنني لم أعد منبهرًا بها، ومع ذلك كانت ألوانها ورشاقتها مذهلة. ومع دقات الساعة الرابعة بدأ شعوري بالإرهاق يزداد، كنت منهكًا من الليلة الطويلة الماضية، عدت إلى حجرتي وأمضيت أمسيتي في هدوء قبل الذهاب إلى النوم.

كانت الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي عندما دخلت الصالون، نظرت إلى الأجهزة التي أظهرت أن الغواصة نوتيلوس تطفو بسطح المحيط. سمعت وقع أقدام فوقي صعدت إلى السطح، لكن بدلًا من أن أجد ضوء النهار الساطع، وجدت ظلمة تحيط بي من كل جانب. هل ما زلنا في فترة الليل؟ كلا، لم يكن هناك نجمة واحدة.

عجز عقلي عن التفكير عندما سمعت صوتًا بجواري: «ما الأمر يا بروفيسور؟»

أجبت: «آه! يا قبطان، أين نحن؟»

«تحت سطح الأرض يا سيد آروناكس.»

صحت: «تحت سطح الأرض! ولا تزال النوتيلوس تسير!»

«إنها تسير دائمًا!»

«لكنني لا أفهم.»

«انتظر بضع دقائق، سوف تضاء فوانيسنا وسترى.»

وقفت عند السطح وانتظرت، كان الجو مظلمًا للغاية حتى إنني لم أتمكن حتى من رؤية القبطان نيمو. شاع ضوء الفانوس، أغلقت عينيّ مدة ثانية ثم فتحتهما مجددًا، توقفت الغواصة نوتيلوس، وهامت باتجاه جبل، كنا في بحيرة تحيط بنا جدران شاهقة.

سألته: «أين نحن؟»

أجابني القبطان: «نوجد الآن في بركان قديم توقف عن النشاط منذ سنوات مضت.»

سألته: «كيف وصلنا إلى هنا؟»

«شكلت مياه المحيط الأطلنطي قناة تشبه الخندق تؤدي بنا إلى هنا، نحن في أمان، نحن نستخدم هذا البركان كثيرًا للغاية، حيث نحصل على الطاقة من هنا.»

سألته وأنا أحاول التوصل إلى كيفية فعل ذلك: «ماذا تقصد؟»

قال القبطان نيمو: «نحن نستخرج الفحم من الصخور، وهكذا نحصل على الطاقة.»

كان الأمر غريبًا، لم أفكر فيه من قبل بالفعل، وبعد أن عرفت هذا المكان، وكيفية مواصلة الحيوان المفترس سيره، كانت إضافة رائعة لقصة الغواصة.

قال القبطان: «سنعمل هنا اليوم، إذا أردت أنت وصديقاك التجول في الكهف، فلا بأس.»

شكرت القبطان وذهبت للبحث عن نيد وكونسيل، وأثناء ذلك، تساءلت هل لدى القبطان نيمو أدنى فكرة عن رغبة نيد الشديدة في مغادرة السفينة. هل يعمل أننا كنا نخطط للهرب؟ هل سيضع هو خطته الخاصة لإبعادنا عن اليابسة ليجعل محاولتنا مستحيلة؟

دعوت صديقيّ لاتباعي دون اطلاعهما على المكان الذي سنذهب إليه، كان من الصعب مفاجأة كونسيل بأي شيء، فقد كان دائمًا يسبقني بخطوة، وهكذا كان الأمر اليوم. أما نيد، فبدلًا من استمتاعه باليوم، لم يفكر في شيء سوى اكتشاف هل سنتمكن من مغادرة الجبل عبر الكهف.

رغم حقيقة أنهما لا يشعران بالإثارة التي أشعر بها، قضينا باقية النهار في الاستكشاف. وأثناء صعودنا على متن النوتيلوس في نهاية اليوم، رأينا طاقم السفينة بعد أن انتهى الآن من تحميل الفحم. يمكن أن تغادر السفينة في ذلك الوقت، لكن القبطان نيمو لم يصدر أوامره. هل أراد الانتظار حتى الليل ثم يغادر سرًّا ليلًا؟ هل هذا من باب الحيطة في حالة أننا حاولنا التسلل والهروب؟ لعل الأمر كذلك، لكن أيًّا كان السبب، في اليوم التالي ابتعدت النوتيلوس تمامًا عن أي يابسة. هذا جعلني أتعجب أكثر من القبطان نيمو.

على مدار تسعة عشر يومًا مكثت فيها الغواصة نوتيلوس في منتصف المحيط الأطلنطي، تسير بنا بسرعة تبلغ مائة فرسخ يوميًّا، لم يحدث أي شيء ذي أهمية أثناء هذه المدة الطويلة، مع ذلك، بدا نيد يزداد غضبًا يومًا بعد يوم.

وفي الثالث عشر من مارس/آذار قطعنا ما يقرب من ألف وثلاثمائة فرسخ منذ مغادرتنا المحيط الهادئ، جاء صديقاي إلى حجرتي.

قال نيد: «لديّ سؤال بسيط لك.»

«تفضل يا نيد.»

«كم في رأيك يبلغ عدد الرجال الموجودين على متن الغواصة نوتيلوس؟»

قلت: «لا أستطيع تحديد العدد يا صديقي.»

«أستطيع التأكيد أن العمل هنا لا يحتاج إلى طاقم كبير.»

قلت: «أوافقك الرأي، في رأيي عشرة رجال بحد أقصى.»

تركت نيد يتحدث قليلًا عن قدر الهواء الذي يستهلكه كل رجل على متن النوتيلوس كل يوم وكم عدد الرجال الذين يمكنهم البقاء لقدر معين من الوقت. شعرت بالأسف حيال الرجل، لا بد أنه تعيس للغاية لوجوده هنا، لكن لم أشعر بأسف شديد يضاهي مشاعره بالأسف، كنت سعيدًا إلى حد ما لوجودي بالغواصة وكنت أتطلع ليوم غد بالفعل.

الفصل السادس عشر

المطاردة

مع مرور الأيام ومع عدم تنفيذ خطة نيد للهروب قط، بدأت أشعر بالأسف المتزايد تجاه صديقي، لم يكن هناك شيء يثير اهتمامه سوى القليل، لم يدرس البحار مثل القبطان ومثلي. لم يكن هناك شيء يثير حماسته، لكن في ذلك اليوم تحديدًا، حدث شيء، وسواء أكان خيرًا أم شرًّا، جعل الرجل يشعر بالحماسة والبهجة.

في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا، وأثناء جلوسنا بسطح النوتيلوس، صادفت النوتيلوس سربًا من الحيتان.

تعجب نيد: «يا إلهي! ليتني كنت على متن مركب صيد حيتان، سيكون الأمر مثيرًا للغاية! إن هذا الحوت ضخم للغاية! انظر إلى الهواء والسيل الذي ينبعث من فتحة التنفس؟ لماذا أنا مضطر للبقاء هنا؟ لماذا؟»

شاهدت صديقي وهو يتجول فوق السطح، يتبع المشهد في الأفق.

صاح نيد: «إنها تقترب منا، أستطيع رؤية عشرين حوتًا — ربما أكثر! يا إلهي، أنا عاجز عن فعل أي شيء!»

قلت وأنا أتقدم لمشاهدة الحيتان: «نيد، لماذا لا تطلب من القبطان نيمو ما إذا كان بإمكانك مطاردتها؟»

للمرة الأولى منذ وقت طويل، رأيت عينا نيد تلمع، وقبل أن أتفوه بكلمة أخرى، نزل إلى الأسفل، وبعد بضع دقائق، جاء كلاهما.

قال القبطان: «آه، إنها حيتان جنوبية.»

كان نيد يتوسل إلى القبطان تقريبًا: «هل بإمكاني مطاردتها! هذا سيذكرني كثيرًا بأيام الصيد بالرمح!»

سأل القبطان: «لماذا؟ لقتلها فحسب؟ ليس هناك شيء نفعله بزيت الحيتان هنا، سيكون هذا قتل لمجرد القتل.»

واصل القبطان حديثه عن الحيوانات المعرضة لخطر الانقراض حول العالم، تلك الحيوانات التي تقتل للمتعة فقط. رأيت نيد يدير ظهره محاولًا تجاهل ما يقوله القبطان، كان من السهل رؤية مدى شعوره بالألم، فقد أدرك أن ما يقوله القبطان حقيقي، ومع ذلك أراد ممارسة هوايته. كان رجل يتمنى في تلك اللحظة أن يكون في أي مكان آخر غير هذا المكان.

قال القبطان وهو يغير نبرة صوته: «انتظر! هل ترى، خلف هذه الحيتان، على بعد ثمانية أميال تقريبًا، هناك شيء ضخم يتحرك؟»

أجبت: «أجل يا قبطان.»

«هذه حيتان العنبر، حيوانات مريعة، فهي حيوانات وضيعة وقاسية، لا ضرر من قتلها.»

استدار نيد سريعًا لدى سماعه كلمات القبطان.

«هل يمكننا ...؟»

قال القبطان: «ستتولى النوتيلوس أمرها، لدينا رمح معدني سيضاهي أيًّا من رماحك، يا سيد نيد.»

تحدث الرجلان جيئة وذهابًا، ثم اتفقا على الذهاب إلى مساعدة الحيتان. ذهبت النوتيلوس أسفل المياه، اتخذت أنا وكونسيل ونيد أماكننا أمام النافذة في الصالون. انضم القبطان نيمو إلى الربان لتشغيل المحرك.

فقد بدأت المعركة بين الحيتان وأعدائها بالفعل، لكن عندما انضمت غواصتنا إلى المعركة — يا لها من معركة! قضى النصل المعدني للسفينة على الحيوانات واحدًا تلو الآخر. حاول القليل من الحيوانات البغيضة مهاجمة النوتيلوس، صرخ نيد في وجهها عند مهاجمتها لجانب الغواصة مرارًا وتكرارًا، وفي غضون وقت قليل، كانت الحيوانات جميعها قد ماتت.

قال نيد في غضب: «هل هذا كان صيدًا؟ هذا كان أشبه بجزار يستخدم سكينه، أحب رمحي أكثر.»

قال القبطان: «لكل شيخ طريقته.»

منذ ذلك اليوم فصاعدًا، رأيت شعورًا جديدًا بالكراهية لدى نيد تجاه قائدنا، تمنيت كل يوم ألا يندلع شجار. وجعلت شغلي الشاغل السيطرة على صديقي.

الفصل السابع عشر

القطب الجنوبي

في حوالي الساعة الثامنة صباحًا يوم السادس عشر من مارس/آذار، دخلت النوتيلوس دائرة القطب الجنوبي، أحاط بنا الجليد من كل جانب. يعجز لساني عن وصف جمال الطبيعة الذي شاهدته، تكون الجليد في أشكال مثيرة للدهشة، وبين الحين والآخر كنت أشعر بالذعر ظنًّا مني أننا احتجزنا بين قلاع الجليد. لكن القبطان نيمو دائمًا يكتشف سبيلًا للخروج. مع ذلك، في هذا اليوم سد الجليد طريقنا بالفعل، لم يكن الجبل الجليدي نفسه، بل كانت منطقة باردة لم تسمح بعبورنا، مع ذلك لم يتوقف القبطان نيمو، بل استمر في دفع الغواصة أمام الجبل الجليدي، كانت كرات الثلج تتطاير في الهواء، شعرت وكأن وابلًا من الجليد يمطر حولنا، لكن كتلة الجليد لم تتحرك.

كنت بسطح الغواصة تلك الليلة، كان القبطان نيمو يفكر في موقفنا بعض الوقت عندما قال لي: «أجل، سيد آروناكس ما رأيك في هذا؟»

«أعتقد أننا عالقون يا قبطان.»

سألني القبطان متطلعًا لإجابة صادقة: «إذن، أتعتقد حقًّا يا سيد آروناكس أن النوتيلوس لن تستطيع التحرك؟»

قلت: «ربما تتمكن من التحرك، لكن بصعوبة كبيرة.»

أجاب القبطان: «بصورة شخصية، أعتقد أن الغواصة بإمكانها الخروج من هنا، بل والذهاب إلى أبعد من ذلك.»

سألت وأنا أتطلع إلى القبطان: «أبعد نحو الجنوب؟»

«أجل يا سيدي، فسوف نذهب إلى القطب الجنوبي.»

سألت وأنا أبدو كطفل متحمس: «إلى القطب الجنوبي؟»

أجاب القبطان بعدم اكتراث: «أجل، سنذهب إلى القطب الجنوبي.»

أخذتني حماسة الحديث، صحت: «هيا لننطلق! لا شيء سيقف في طريقنا! هيا بنا لنحطم الجبل الجليدي! دعنا ننسفه، وإن لم ينجح ذلك، فسنضع للغواصة أجنحة لتحلق فوقه!»

قال القبطان نيمو في هدوء: «ليس فوقه يا سيدي! ليس فوقه، بل أسفله!»

صحت: «أسفله»، وفهمت ماذا يقصد.

قال القبطان نيمو مبتسمًا: «أرى أننا بدأنا نفكر بالطريقة نفسها، لقد بدأت ترى الاحتمالات، فالأشياء التي تعد مستحيلة للسفن العادية يسهل على النوتيلوس القيام بها.»

ناقشنا خلال الدقائق التالية المشكلات التي يمكن أن تواجهنا في الساعات القادمة.

قال القبطان نيمو: «إن المشكلة الكبيرة الوحيدة التي أراها هي وجودنا أسفل الجبل الجليدي لأيام دون الصعود لأعلى للحصول على الهواء.» بالطبع هذه مشكلة حياة أو موت، تحتاج إلى تخطيط دقيق. لكن مع دقات الساعة الرابعة هذه الظهيرة، دعا القبطان نيمو إلى إغلاق السطح. ألقيت نظرة أخيرة على الجبل الجليدي الضخم الذي سنجتازه.

جلسنا ننظر خلف النافذة فترة من الليل، كان البحر مُضاءً بالمصابيح الكهربية، لكن ليس هناك حياة بحرية، تحركت الغواصة بسرعة. وبحلول الساعة الثانية صباحًا، ذهبت إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، التاسع عشر من مارس/آذار، ذهبت إلى الصالون لتفقد العمل خلال الساعات الماضية. أظهرت الأجهزة انخفاض سرعتنا كثيرًا، كنا نتحرك في اتجاه السطح. بدأ قلبي يخفق بسرعة، شعرت بهزة بالغواصة تبينت منها أن النوتيلوس قد اصطدمت بقاع الجبل الجليدي. لا يزال هناك ثلاثة آلاف قدم من الجليد أعلانا.

حاولت النوتيلوس التقدم مرارًا وتكرارًا عدة مرات خلال اليوم لكن لم تقترب حتى من اختراق تلك الكتلة الجليدية.

حان وقت الشعور بالقلق حيال الأكسجين الموجود بالغواصة، إذ كان يجب إعادة ملء مخزوننا من الهواء منذ أربع ساعات ماضية، لم أشعر بمعاناة كبيرة، لكن القبطان نيمو ليس لديه أي خطة عن الوقت المحدد لاستخدام الأكسجين الاحتياطي الذي خزنه بالغواصة.

لم أنعم بنوم هانئ تلك الليلة، كان جسدي يتمايل ويتحرك بعنف، استيقظت عدة مرات. وفي منتصف الليل، لاحظت أن الغواصة كانت أسفل الجبل الجليدي بخمسين

قدمًا فقط. تفقدت الأجهزة التي أظهرت أننا نصعد نحو سطح المحيط. تمكنا من رؤية وميض الشمس الذي تخلل الجليد قبل أن نصعد بالفعل إلى سطح المحيط. يا له من مشهد يسر الأنظار! وفي الساعة السادسة في الصباح ظهر القبطان نيمو عند الباب.

لم يقل سوى: «البحر مفتوح!»

اندفعت نحو السطح، يا إلهي! البحر اللامتناهي، مرصع بقطع متناثرة من الثلج وجبال جليدية متحركة، رقعة مديدة من البحر، أعداد غفيرة من الطيور تحلق في السماء والأسماك من كل لون تحت المياه. انطلقنا سريعًا خلف الجبل الجليدي الذي كنا محتجزين وراءه.

سألت القبطان وقلبي يخفق: «هل وصلنا إلى القطب؟»

أجاب القبطان: «لا أدري، عند الظهيرة سأحصل على القياسات من الشمس.»

قلت: «لكن هل تعتقد أن الشمس ستظهر بين هذا الضباب؟»

أجاب القبطان: «سيكون كل شيء على ما يرام.»

بحلول الساعة العاشرة صباحًا، كنا مستعدين لزيارة الجزيرة. أخذنا قارب تجديف إلى الشاطئ، كان كونسيل سيقفز إلى اليابسة حين منعته.

قلت للقبطان نيمو: «سيدي، أنت الأجدر بأن تكون أول من يضع قدمه فوق الجزيرة.»

قال القبطان: «أجل،» رأينا أنه يحب الاهتمام، حدق إلى الجزيرة وكأنه لم يراها من قبل. «حتى هذا الوقت، لم تطأ قدم إنسان فوق القطب الجنوبي.»

قفز بخفة فوق الرمال. تسلق صخرة، وأخذ يحملق إلى الجزيرة. بدا كأنه ملك عاد إلى مملكته الآن. وبعد مرور خمس دقائق، استدار أخيرًا إلينا ودعانا إلى الجزيرة.

ترجلنا من السفينة لننضم إليه، كنت متلهفًا لاستكشاف الجزيرة! لم أعلم من أين أبدأ. أخذتني قدمي إلى حيث شاءت، كانت التربة التي كنت أسير فوقها تربة رملية حمراء، خلفها البركان، لم تكن هناك نباتات كثيرة في هذه المنطقة، كان أغلبها أجزاء بالغة الصغر قذفتها أمواج البحر. ومن ناحية الحيوانات، كان هناك بعض أنواع من بلح البحر الصغير وفراش البحر والرخويات. بل الشيء الأكثر إثارة الذي لاحظته، النموذج الرائع للحياة في السماء، آلاف الطيور التي ترفرف وتحلق، كانت أصواتها عالية للغاية لم نتمكن من سماع سواها، تجمعت طيور أخرى فوق الصخور، تنظر إلينا أثناء مرورنا بها. كانت تقفز أمام أقدامنا دونما خوف، وهناك بطاريق تسبح برشاقة في المياه

مع حركتها الغريبة على اليابسة. كانت تطلق صيحات عالية، شاهدنا تحليق الطيور وسباحتها وسيرها حولنا. وقفت في ذهول وأنا أحاول تذكر هذه الطيور من كتب أنواع الطيور العديدة التي قرأتها. تذكرت طيور الكيونيز وطائر القطرس وطائر النوء. كان من الصعب تصديق أنني أرى هذه المخلوقات في الواقع، مما أتاح لي دراستها عن قرب.

لم أصدق إمكانية حدوث شيء مخيب للآمال ذلك اليوم، لكنه حدث بالفعل. لم ينقشع الضباب ولم تظهر الشمس، وبالتالي لم نتمكن من التأكد من أننا بالقطب الجنوبي بالفعل، بل والأسوأ من ذلك، تحول الضباب الأبيض إلى ثلوج.

قال القبطان نيمو في هدوء: «لنعد غدًا.»

عدنا إلى الغواصة بمشاعر مختلطة. شعرنا بالفرحة لرؤيتنا هذه الأشياء المذهلة، لكن في نفس الوقت شعرنا بحزن أننا لم نتوصل إلى الحقيقة.

استمر سقوط الجليد إلى اليوم التالي، كان من المستحيل الصعود إلى سطح الغواصة، تمكنت من سماع صياح الطيور وسط العاصفة من خلف النافذة التي جلست عندها لأكتب ملاحظاتي. لم تظل النوتيلوس ثابتة، لكنها سارت بمحاذاة الساحل مسافة عشرة أميال تقريبًا.

وبحلول اليوم التالي، الموافق ٢٠ مارس/آذار، توقف هطول الثلج. كان الجو إلى حد ما أكثر برودة، أظهر الترمومتر أن درجة الحرارة تبلغ اثنين، كان الضباب ينقشع، إذن هناك أمل في شروق الشمس، لم يكن القبطان نيمو موجودًا، لذا استقللت أنا وكونسيل قاربًا إلى الجزيرة. لم يختلف ملمس الرمال منذ رحلتنا الأخيرة، لكن انضم إلى الطيور الآن جماعات ضخمة من الثدييات البحرية، نظرت إلينا بعيونها الجميلة، كان هناك أنواع عديدة من حيوان الفقمة، بعضها تمدد على الأرض وبعضها فوق الجليد، والعديد منها يدخل ويخرج من المياه. لم تبتعد الفقمة عن المياه رغم اقترابنا، شعرت بالدهشة، إذ إنها لم تر بشرًا من قبل.

أمضيت أنا وكونسيل الساعات الثلاثة التالية في دراسة ومراقبة تلك الحيوانات. يا لها من متعة! أخذت أستمع إليها وأراقبها وألعب معها وأتحسسها ... كان بإمكاني قضاء أيام مع هذه الحيوانات الفضولية.

قررت العودة إلى الغواصة في تمام الساعة العاشرة لأرى هل تمكن القبطان نيمو من معرفة موقعنا في هذه الظروف. سلكنا طريقًا آخر عائدين إلى نقطة البداية، عاد القارب إلى الغواصة، رأيته يقف فوق الغواصة ويتطلع إلى السماء، سنحتاج إلى أعلى نقطة ممكنة لنحصل على قراءات بالأجهزة.

ذهبت أنا والقبطان بمفردنا لتفقد الأجهزة، تسلقنا المنحدر الوعر على مدى ساعتين لنصل إلى أعلى نقطة. نصب القبطان أدواته وركز بصره نحو الشمس.

صحت: «إنها الساعة الثانية عشرة.» حبسنا أنفاسنا أثناء عمل الأجهزة.

أجاب القبطان في جدية: «إنه القطب الجنوبي!»

نظرت إلى الرجل الذي حاول باجتهاد العثور على هذه الأرض. في تلك اللحظة، قال القبطان نيمو واضعًا يده فوق كتفي: «أنا القبطان نيمو في يوم الواحد والعشرين من مارس/آذار عام ١٨٦٨، وصلت إلى القطب الجنوبي. أعلن سيطرتي على هذا الجزء من الكرة الأرضية، الذي يعادل سدس القارات المعروفة.»

«باسم من يا قبطان؟»

«باسمي، يا سيدي!»

نشر القبطان نيمو علمًا أسود حُفر به من الذهب حرف «ن».

وأثناء وضعنا للعلم في الأرض المكسوة بالجليد، رأينا الشمس تبدأ في الغروب خلف البحر المفتوح. فقد بدأت ستة أشهر من الظلام تلقي بظلالها على أرض القبطان نيمو الجديدة.

الفصل الثامن عشر

جنوح الغواصة

في تمام الساعة السادسة صباح اليوم التالي، الثاني والعشرين من مارس/آذار بدأنا الاستعداد للمغادرة، كانت آخر النقاط المضيئة في السماء تتحول إلى ليل والجو شديد البرودة وبدت النجوم قريبة منا.

بدأت رحلتنا، أبحرنا مسافة ألف قدم واتجهنا شمالًا بسرعة خمسين ميلًا في الساعة. ومع اقتراب الليل بدأنا طريقنا أسفل الجبل الجليدي، وفي تمام الساعة الثالثة صباحًا استيقظت على صدمة عنيفة. جلست فوق السرير وأصغيت السمع في الظلام وفجأة ارتميت في منتصف الحجرة. فقد اهتزت النوتيلوس هزة عنيفة إثر اصطدامها. تحسست طريقي إلى الجدار واتبعت السلم حتى الصالون، كان الأثاث مقلوبًا رأسًا على عقب، والصور المعلقة بالجدران ملتوية، كانت النوتيلوس مائلة على جانبها، وثابتة تمامًا. سمعت وقع أقدام وأصوات لكن لم يظهر القبطان نيمو، وعند مغادرتي الصالون، دخل نيد وكونسيل.

سألتهما على الفور: «ماذا حدث؟»

رد كونسيل: «جئت لأسألك يا سيدي؟»

قال نيد: «أنا أعلم، ارتطمت الغواصة بشيء ما، وبالمناسبة هي مائلة على جانبها، لا أعتقد أنها ستتمكن من تصحيح وضعها هذه المرة!»

سألتهما: «هل نحن على سطح المياه؟»

قال كونسيل: «لا نعلم يا سيدي.»

قلت: «من السهل معرفة ذلك،» ذهبت إلى جهاز قياس الضغط. أظهر الجهاز العمق الذي وصلنا إليه. ولدهشتي الكبرى، أظهر الجهاز أننا على عمق ما يزيد عن مائة وثمانين قامة تحت سطح الأرض. صحت: «ماذا يعني ذلك؟»

قال كونسيل: «لا بد لنا أن نسأل القبطان نيمو.»

قال نيد: «لكن أين هو؟»

قلت لصديقيّ: «اتبعاني.»

تركنا الصالون ولم نجد أحدًا بحجرة المكتبة أو بالسلم أو بحجرة القيادة. عدنا إلى الصالون، وانتظرنا عشرين دقيقة. نصغي السمع لأقل ضجيج. وفي النهاية، دخل القبطان نيمو، وتصرف وكأنه لم يرانا. بدا على وجهه، الذي عادة ما يكون شامخًا، علامات الانزعاج. راقب البوصلة، ثم أداة قياس الضغط، ثم الأدوات الأخرى التي استخدمها لتوجيه السفينة. لم أقاطعه، لكنني سعدت بأنه استدار نحوي في النهاية.

سألته: «هل هناك خطب ما يا قبطان؟»

«أجل، حادثة.»

سألته: «أهي خطيرة؟»

أجاب القبطان: «ربما.»

«هل نحن في خطر في هذه اللحظة؟»

أجاب: «كلا.»

سألته متمنيًا سماع الإجابة الصحيحة: «هل نحن عالقون هنا؟»

«أجل، فقد جنحت الغواصة.»

سألته: «لكن كيف؟ كيف حدث هذا؟»

أجاب القبطان: «هذا ليس خطأ أي فرد، فقد حدث هذا بفعل الطبيعة، الآليةِ التي يعمل بها المحيط.»

أسهب القبطان في شرح التفاصيل، انقلب جبل من الثلج، وعندما انهار، ارتطم بالغواصة، مما تسبب في جنوحها. كانت النوتيلوس ترتفع ببطء، لكن الجبل الجليدي كان يرتفع معها. من الممكن أن تستمر الغواصة في الصعود حتى تصل إلى السطح وتستقيم، أو ... يمكن أن تنحشر بين جبلي جليد.

لم يبعد القبطان نيمو عينه عن جهاز قياس الضغط، صعدت النوتيلوس مسافة مائة وخمسين قدمًا تقريبًا منذ المرة الأولى التي تفحص فيها الجهاز، وفجأة شعرنا بحركة طفيفة. بدأت الصور المعلقة بالصالون تعود إلى وضعها الطبيعي. لم يتحدث أحد، راقبنا بقلوب نابضة الأمر وشعرنا باستقامة مسار الغواصة، مرت عشر دقائق بطيئة.

صحت: «أخيرًا استقامت الغواصة! لكن هل وصلنا إلى السطح؟»

أجاب القبطان نيمو: «بالطبع،» ذهبنا عبر الردهة وصعدنا السلالم المؤدية إلى البوابة. ثم إلى السطح لنرى مشهدًا رائعًا، كنا وسط بحر مفتوح، لكن يحيط بنا جدار جليدي شاهق الارتفاع، في واقع الأمر كنا في نفق رائع من الجليد، كان من السهل الخروج من هذا النفق إما بالتقدم إلى الأمام أو بالعودة إلى الخلف، وبعد ذلك نذهب أسفل الجبل الجليدي مسافة مائة ياردة تقريبًا.

كانت الدقائق القليلة التالية ساحرة، حقيقة تأذت أعيننا من لمعان الجليد، واستغرقنا بعض الوقت للتأقلم.

دقت الساعة الخامسة صباحًا، وفي تلك اللحظة شعرنا بهزة، عرفت على الفور أننا اصطدمنا بكتلة ثلجية، أدركت أيضًا أن القبطان نيمو سيجد بسهولة منعطفًا آخر في النفق. شعرت بأن الغواصة بدأت في العودة إلى الخلف.

فكرت بصوت عال: «ليس هناك مشكلة، سوف نعود فقط للخلف حتى نخرج ثم نتجه إلى الفتحة الجنوبية.»

لكن مرت الساعات، مكثت مع صديقيّ حتى نخفف من وطأة الانتظار، أخذت أنظر إلى الأجهزة المعلقة في الصالون، لا نزال على بعد ثلاثمائة قدم تحت سطح الأرض، وما زلنا نتحرك جنوبًا ونسير بسرعة عشرين ميلًا في الساعة. لكن القبطان نيمو يدرك ما يفعله، حاولت ألا أشعر بالقلق.

وفي تمام الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة، حدثت هزة ثانية، هذه المرة جاءت من الخلف، اصفر وجهي، كان صديقاي على مقربة مني، أخذت بيد كونسيل وضغط عليها، كانت النظرات التي علت وجهنا أبلغ من الكلمات، وفي تلك اللحظة دخل القبطان نيمو إلى الصالون. سرت نحوه.

سألت: «طريقنا الآن مسدود في الجنوب؟»

«أجل، لقد تحرك الجبل الجليدي وكل فتحة مسدودة الآن.»

همست: «أنحن محاصرون؟»

«أجل، بالفعل.»

الفصل التاسع عشر

إمدادات الهواء

أحاط بالغواصة نوتيلوس، من أسفلها وأعلاها، جدار سميك من الثلج، كنا محتجزون بين الجليد، راقبت القبطان، بدا عليه شيء من القلق.

قال في هدوء: «يا سادة، أنتم تشعرون بالقلق حيال أشياء لا داعي للقلق حيالها.» كانت النظرات الحائرة التي علت وجوهنا تسأله الاستمرار في الحديث.

«أولًا، لن نجوع حتى الموت على متن هذه الغواصة، فهناك ما يكفي من إمدادات الطعام بهذه الغواصة للصمود في أي محنة.»

لم أفكر في هذا الأمر، لذا لم أشعر بأي راحة لدى سماعي هذه النقطة.

«ثانيًا، أدري أنكم فكرتم جميعًا في احتمالات نفاد الأكسجين، يجب ألا تخشوا من هذا الأمر، لدينا إمدادات من الهواء على متن الغواصة تكفينا مدة ثمانية وأربعين ساعة.»

سألته: «لكن يا قبطان، ماذا سيحدث بعد ذلك؟»

«أعتقد يا سيد آروناكس أننا سنكون اخترقنا هذا الجدار بحلول ذلك الوقت.»

سألته: «من أي جانب؟»

«سأستخدم أجهزتي للعثور على أقل الجوانب سمكًا، وسوف يخترق رجالي ذلك الجانب.»

أدركت الخيار الثالث الذي ينبغي أن نخشاه، لطالما لازمتني فكرة تحطمنا أسفل هذا التل الجليدي، فلم أكن بحاجة أن يذكرني القبطان بهذا الخيار.

خرج القبطان نيمو، شعرت بهبوط الغواصة ببطء وارتكازها على الجليد في عمق يبلغ ثلاثمائة وخمسين ياردة.

قلت: «يا صديقيّ، إن وضعنا خطير، لكنني أدري أنكم ستظهرون شجاعةً.»

كان كل فرد على متن الغواصة على استعداد لإظهار شجاعته، فقد استعددنا بارتداء سترات النجاة، خرج اثنا عشر فردًا من طاقم السفينة نحو حافة الجليد وهم يحملون الفئوس، وبعد مرور ساعتين من الحفر الشاق، جاء نيد والآخرون وهم يشعرون بالإنهاك، وحل محلهم طاقم آخر من العمال، كنت أنا وكونسيل ضمنه. بدت المياه شديدة البرودة، لكنني شعرت بالدفء سريعًا مع تحريك الفأس. عندما عدت إلى النوتيلوس لتناول الطعام والاستراحة، وجدت اختلافًا كبيرًا في الهواء، كان من الصعب التنفس داخل الغواصة، لم يُجدد الهواء مدة يومين، شعرت بالاختلاف بالفعل، ارتجفت وأنا أفكر في الساعات القادمة، فبعد اثنتي عشرة ساعة من العمل، لم نحطم سوى ياردة واحدة من الثلج! وبهذا المعدل سوف نستغرق خمس ليال وأربعة أيام لاختراق الجليد تمامًا. لكن لا نملك سوى هواء يكفينا مدة يومين بالغواصة! سوف ينفد الهواء قبل أن تتمكن النوتيلوس من الصعود إلى السطح بفترة طويلة.

واصلنا جميعًا العمل دونما شكوى أو التفكير في الأشياء المريعة التي قد تنتظرنا. على الأقل أثناء العمل بالفأس تشعر كأنك تسهم بشيء، كما تشعر بأنك على قيد الحياة، حيث تستنشق هواء جديدًا. فهؤلاء هم الرجال الأكثر احتياجًا للهواء النقي، عندما أذهب إلى الغواصة للاستراحة من العمل، أتمكن من التنفس بصعوبة شديدة، فالزفير قد ملأ الغواصة، فكنا نتنفس ببساطة الزفير، لا بد من وجود هواء نقي لضخه في الغواصة، لكن لا يمكن هذا.

على مدى أيام، تعايشنا مع حقيقة أن الهواء ينفد منا، استمر الرجال في الحفر على نوبات لاختراق الجدار الجليدي. لا شك أننا أبطأنا، كانت أجسادنا ضعيفة ولا نفكر إلا في الهواء، مما أجبر القبطان نيمو على التفكير فيما وراء خطته الأصلية، حتى في ظل حالته المؤسفة، فكر الرجل بسرعة وتوصل إلى أفكار ذكية.

إحدى حيله، استخدام خراطيم مياه مغلية لرفع درجة الحرارة في ذلك الجزء من البحر. وحيلة أخرى، التي أدت في النهاية إلى إنقاذنا على الأرجح، كانت تخفيف وزن الغواصة، ثم ملء منطقة التخزين بالغواصة بالمياه، بلغ وزن النوتيلوس الآن ألفًا وثمانمائة طن، تصدع الجليد أسفلنا، وهبطت الغواصة، سرعان ما بدأت المضخات في طرد المياه خارج الغواصة، ومع خفة وزن الغواصة بدأت في التحرك بسرعة كبيرة، اخترقت المياه وانطلقت للأمام كالرصاصة داخل منطقة ثلجية، واخترقنا إلى سطح المياه وتذوقنا الهواء البحري المالح الذي كنا نحلم به على مدى أيام، كانت هذه الحادثة من أكثر الحوادث التي اقتربت فيها من الموت.

الفصل العشرون

الهروب الأخير

كنا سجناء الغواصة نوتيلوس على مدى سبعة شهور، قطعنا خلالها عشرين ألف فرسخ. قال نيد في النهاية: «ليس هناك سبب لاستمرارنا هنا.»

هذا إلى جانب تغير معاملة القبطان معي مؤخرًا، فلم يكن ودودًا أو متعاونًا كما كان في السابق، حتى إنه بدا يتجاهلني، ونادرًا ما كنت أراه. فقد اعتاد أن يشارك معي أي شيء مثير يجده في دراساته في السابق، أما الآن فهو يتركني لدراساتي ولا يأتي إلى الصالون أبدًا، ماذا تسبب في هذا التغيير؟

مرت علينا ليلة مفزعة في أبريل/نيسان لن ينساها أي منا، حبار ضخم، سمكة تشبه الوحش أكثر من كونها حيوانًا بحريًّا، هاجم الغواصة وقتل أحد أفراد الطاقم. كان ذلك الرجل صديقًا مقربًا للقبطان نيمو، رأيته يبكي أكثر من مرة وهو ينظر إلى الأمواج.

وفي ذلك الوقت أيضًا جاء إليّ نيد بطلبٍ مُلح.

قال لي: «بروفيسور، لا بد أن ينتهي هذا الأمر، نيمو يغادر المكان ويتجه نحو الشمال، لكنني أؤكد لك أنني سأمت القطب الجنوبي، ولن أتبعه إلى الشمال.»

«ما الذي تنوي فعله يا نيد؟»

قال نيد: «هناك بعض الأماكن التي يمكنني الوصول إليها قبل أن نذهب بعيدًا للغاية، لكن مهما كان الأمر، فسألقي بنفسي في البحر قبل الاستمرار في هذه الرحلة! لا بد أن تتحدث معه!»

أدركت أنه جاد في حديثه للغاية، كنت أشعر بمثل شعوره يومًا بعد يوم، منحت نفسي ساعة للتفكير ثم ذهبت لمقابلة القبطان.

قلت: «لكننا هنا منذ سبعة أشهر!» عندما أجابني القبطان بحزم: «لا» من البداية.

انفجر القبطان غضبًا: «لقد أخبرتكم بأن من يدخل الغواصة نوتيلوس لا يغادرها أبدًا.»

تجادلنا بضع دقائق، كان الكلام لا طائل منه، أدركت أنني لن أتوصل معه إلى شيء، أخبرت نيد أنه علينا التخطيط للهروب في سرية. لم نطق الانتظار أكثر من ذلك، سيكون الهروب الليلة، لا تهم الأحوال الجوية.

لكن السماء كانت تنذر بأحوال جوية سيئة، بدأت علامات قدوم إعصار في الظهور، رياح وأمطار شديدة، ورعد قوي وبرق هز الغواصة هزًّا.

قال نيد: «لا يزال بإمكاننا تنفيذ الخطة!» مع ما بدا عليه الأمر من خطورة، قررت المخاطرة معه، جمعت ملاحظاتي، ومشيت في قلق عبر الصالون حيث كان يجلس القبطان، وصعدت إلى السطح، لكن الأمطار العاتية أجبرتنا على الدخول مرة أخرى داخل الغواصة للتحدث بضع دقائق. وعندما بدأنا حديثنا، شعرت بأن أبواب الغواصة تغلق، وفي غضون ثوان بدأت الغواصة نوتيلوس في النزول في أعماق المياه، ومجددًا أحبطت خطة هروبنا.

شعرنا باعتلال أجسادنا نتيجة لخيبة الأمل، فإذا لم يحدث ما حدث بعد ذلك، أعتقد أن نيد كان سيقفز داخل المياه شديدة البرودة. وعلى مدى ربع الساعة شاهدنا سفينة تقترب نحونا، وعندما اقتربت بما يكفي لنشعر ببارقة أمل، بدأ إطلاق النيران مما جعلنا نشعر بالذعر والغضب.

صاح نيد: «لماذا يطلقون النيران علينا؟»

قال القبطان في هدوء أعصاب: «لا يهم حقًّا، فهم يريدون معركة.»

لكن أيًّا كان السبب، منع القبطان نيمو نفسه من إطلاق النيران حينها. ذهبت أنا وصديقاي إلى حجراتنا تلك الليلة. مرت معظم فترة المساء دون أي فعل جديد. وعند الساعة الثالثة صباحًا، ذهبت إلى السطح وأنا أشعر بتوتر شديد، كان القبطان نيمو هناك. استغرق الأمر ساعات، لكن القبطان نيمو تمكن في النهاية من تدمير السفينة، بقدر ما كان الأمر مروعًا، تمنيت أن أكون هناك بالسفينة لأخوض معهم المغامرة في هذه المعركة.

خلال الأيام التالية، فقدت إحساسي بالزمن بالفعل، لم أعرف سرعتنا أو موقعنا، فقد انجرفنا مع التيار، ولا أكترث إلى أين، شعرت بما يشعر به صديقاي يومًا بعد يوم، أردت مغادرة الغواصة.

قال نيد في وقت مبكر من صباح يوم ما: «سنغادر الليلة!»

لم نعرف ما هي البلد التي سنرسو بها أو المسافة التي سنقطعها أو الأحوال الجوية، لكننا قطعنا وعودًا على أنفسنا أن تلك الليلة هي ليلة الهروب. كانت الساعات التالية صعبة، أردت الذهاب إلى القبطان لأشكره، أردت إخباره أنني لن أنسى الوقت الذي أمضيته بالغواصة. لكنني أدركت أيضًا، أنه لن يتركنا نغادر الغواصة أحياء، بدلًا من ذلك، أمضيت الوقت في غرفتي حتى الساعة العاشرة.

وعند الساعة العاشرة، تسللت بمحازاة السجادة بالردهة وفتحت باب حجرة الصالون بهدوء، كان القبطان نيمو يجلس بالقرب من أجهزته، لم أملك خيارًا آخر، كان علي الاقتراب منه، وأثناء فعلي ذلك، استدار حوله، كانت عيناه تمتلئ بالدموع، أردت التحدث معه، لكن لم أستطع. بدلًا من ذلك أسرعت الخطى عبر حجرة المكتبة ثم صعدت السلم وخرجت من الباب ثم وصلت إلى زورق صغير كان على متن الغواصة، تأكدت من أن القبطان لا يتبعني.

صحت: «لنرحل! لنرحل!»

كان الأمر مروعًا، فالأمواج تهز الزورق هزًّا عنيفًا صعودًا وهبوطًا، والضجيج عال حتى إننا لم نستطع سماع بعضنا، بدا أن مغادرة الغواصة واستقلال زورق صغير للتحرر وسط المحيط فكرة حمقاء في ذلك الوقت. لكن العودة مجددًا ومواجهة القبطان، الذي سيكون بالتأكيد غاضبًا، فكرة لا تقل حماقة.

لم يكن لدينا خيار آخر حقًّا، كان صديقاي يحاولان التوصل إلى أفكار عندما ارتطم رأسي بقطعة حديدية، وفقدت الوعي فوق الزورق، لا أدري أين أخذتني الساعات القليلة التالية.

عندما استعدت الوعي، كنت أرقد في كوخ صياد، وصديقاي على مقربة مني، في أفضل حال، يمسكان بيدي. عانقنا بعضنا بعضًا بقوة.

وضعت رأسي مرة أخرى فوق الوسادة، وابتسمت، هل سيصدق أي فرد المغامرة التي خضناها الآن؟ حقًّا ... لا يهم. فقد اكتسبت حق الحديث عن هذه البحار، ومع كل هذا، في أقل من عشرة شهور، قطعت عشرين ألف فرسخ في جولة حول العالم على متن غواصة.

لكن ما مصير الغواصة نوتيلوس؟ أين القبطان نيمو الآن؟ هل ستحمل له الأمواج يومًا ما الكتاب الذي ألفته عنه؟ هل سأعرف يومًا إجابات الأسئلة التي تدور بخلدي عن هذا الرجل؟

أتمنى هذا، كما أتمنى أن تنجو هذه الغواصة القوية من المحن التي أخفقت فيها سفن أخرى. أدعو الله أن يملأ الخير قلبه، كما أدعو له أن يجد قلبه الطمأنينة في دراساته عن البحر.

وبعد قضاء تسعة أشهر مع القبطان نيمو في عالم أعماق المحيطات، هل عثرنا على إجابة الأسئلة الحياتية كافة؟ ربما لا. لكن هل نملك الحق في عرض النتائج التي توصلنا إليها لنجعل العالم مكانًا أفضل؟ سيخبرنا الوقت بذلك. كل ما أدركه أنني أمضيت وقتًا ليس له مثيل، تعلمت الكثير من ذلك الرجل أكثر مما يمكن أن أتعلمه في أي مدرسة أخرى. كنت سجينًا، لكن سجين متحمس، أحترم هذا الرجل وأشكره للهدية التي أهداني إياه.

تلك الأشياء البعيدة التي توجد في الأعماق، من يستطيع استكشافها؟ رجلان فقط يملكان الحق في تقديم الإجابة الآن: القبطان نيمو وأنا.


هنــــداوي